الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

جامعة محمد بوضياف المسيلة.

كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية.

قسم التاريخ.

عنوان:

النشاط العلمي والفكري لحواضر المغرب الأوسط

خلال الفترة(ق10-14 هـ) (ق16-19م).

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر تخصص تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر

إعداد الطالبة:

- كاتية حمدي

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة
أبو بكر الصديق حميدي	أستاذ محاضر –أ–	رئيسا
خير الدين شترة	أستاذ التعليم العالي	مشرفا
عبد الحليم سرحان	أستاذ مساعد –أ–	مناقشا

السنة الجامعية : 1437/1436هـ – 2016/2015 م .

كلمة شكر و تقدير

إن أول مقام شكر أوجهه إلى جل أساتذتي الذين كانوا منارة علم ومعرفة بالنسبة لنا وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور شترة خير الدين المشرف على هذا العمل وقد لا يكفيه الشكر معروفه.

إلى كل من ساندني في دراستي الجامعية أصدقائي(مريم، سلوى، حنان'مريم، سهام، رقية، خضراء، شاكي، فهيمة، وحنان البشوشة) والى خالتي منانة وأولادها، رؤوف، نجمة، والى حبيبة دينا، إلى أخوات صديقات الدرب: نسيمة، توأمي ليديا، والى الملكين جيقورطا وماسينيسا،

إلى كل من ساعدني إخراج هذا العمل، سواء بكتبهم 'تشجيعاتهم، والى من ساهم في إخراجه على شكاه النهائي.و إلى كل أساتذتي و من ساعدني قبل و خلال انجاز هذا العمل ولو بكلمة طيبة .

الإهداء

أهدي ثمرة جهدي إلى الوالدين الكريمين أبي وأمي

(رشيد، فضيلة)

1. الإطار العام للموضوع:

تعد الدراسات التاريخية من الميادين العلمية المهمة في الحياة البشرية ككل، إذ تسمح لنا بالاضطلاع على الماضي ومعرفة أحداثة وفهم روابطه بطريقة تعيننا على استيعاب الحاضر ومواجهة تحدياته، ولذلك نالت الدراسات التاريخية مكانة وأهمية في بناء المجتمعات الحالية، خصوصا ما يخص منها العهود التاريخية وإنجازاتها حيث تسمح هذه الدراسات بالتعرف على هذه المنجزات وتقيمها بشكل يجعلها فعالة بالحاضر وعلى هذا الأساس نالت المجتمعات المغربية_الجزائرية على وجه الخصوص إقبال من طرف دارسي التاريخ خاصة إذا ما تعلق الأمر بالمنجزات الثقافية للجزائر والتي كانت محل تضارب الآراء بين المؤرخين على اختلاف انتماءاتهم الإيديولوجية بالتحديد العهد العثماني وثقافة البلاد في فترة وجودهم فيها.

وكثيراً ما أتهم العهد العثماني بإقليم المغرب الـــوسط بالجمود والتخلف والضعف في الكتابات التاريخية لدى المؤرخين، حيث أرجعوها إلى عدم اهتمام الأتراك بالتعليم وحركة التأليف وعدم تشجيعهم للعلم والعلماء وسماتهم العسكرية التي طبعت حكمهم، متجاهلين بذلك وجود أي حركة في الميدان التعليمي بهذا الإقليم وقد تعود مرجعية هذه الأحكام إلى منطلق إيديولوجي مبني على المقارنات والمقاربات العصرية بين المغرب الأوسط، والعالم الإسلامي من جهة وبينه وبين الدول الأوربية من جهة أخرى، والتي أخذت تتطور في علومها ووسائلها لتصل إلى حد التطبيق في الواقع وتحويل الأفكار إلى مخترعات وآليات ملموسة إلا أن المتصفح للواقع العثماني من منطلق المادة العلمية المصدرية لذلك الوقت يكشف عكس ذلك، إذ أن المخلفات الفكرية للسلف تؤكد على وجود حركية ثقافية ولها ما يميزها عن غيرها من الأقاليم، وهذا ما جعلنا نقبل على هذه الدراسة مستعينين بهذا الطرح.

2 _أسباب اختيار الموضوع:

اقبلنا على هذه الدراسة من منطلق شخصي متمثلا في ميولي العلمية إلى هذه الفترة من تاريخ الجزائر، بالإضافة إلى الدوافع العلمية التي جعلتنا نقبل على هذه الدراسة والتي كانت:

رغبتنا معرفة الواقع الثقافي للبلاد في ظل وجود العثمانيين به، ومعرفة مدى موضوعية أراء المؤرخين حول الموضوع. وإبراز مظاهر الثقافة بالبلاد وإعطاء نظرة موضوعية عنها وتقييمها.

3_إشكالية الموضوع:

وتهدف هذه الدراسة إلى تقديم وصف حول الجانب التعليمي والفكري، ومعرفة واقع الثقافي الإقليم في العهد العثماني وذلك برصد مميزات وخصائص هذه الحركة الثقافية ومظاهرها، و لإبراز الموضوع نبنيه على الإشكالية الآتية: **ما هي طبيعة الأوضاع السياسية والاجتماعية بإقليم المغرب الأوسط؟ وكيف انعكست على الواقع التعليمي والفكري به؟**

- ✓ **ما هي طبيعة ومستوى الحركة التعليمية بإقليم المغرب الأوسط وحواضره في ظل تواجد الأتراك بها؟**
- ✓ **ما هي مظاهر الحياة الفكرية في هذا الإقليم؟ وما هي طبيعة المبادلات العلمية بينها في الداخل والخارج؟**

2. المناهج العلمية المتبعة:

أما عن المنهج المتبع فهو المنهج التاريخي الوصفي يتخلله التحليل والمقارنة، حيث قمنا بوصف الأوضاع العامة لهذا الإقليم في العهد العثماني، وأرفقنا الوصف في الفصول الأخرى مع إبراز علاقة العناصر المذكورة في النشاط العلمي أو الفكري، ومقارنة حالة بعض العناصر في بداية ونهاية هذا العهد، وهو ما أوصلنا إلى جملة من الاستنتاجات.

3. خطة الموضوع:

نعالج بحثنا وفق الهيكل التالي: الفصل الأول: تمهيد حول الأوضاع العامة للمغرب الأوسط خلال الفترة العثمانية. وفيه نظرة عامة حول الأوضاع السياسية التاريخية وهو العنصر الأول في الدراسة، أما في العنصر الثاني تطرقنا إلى الواقع الاجتماعي والاقتصادي، وفي العنصر الثالث مميزات وخصائص النشاط التعليمي والفكري، مع الإشارة إلى نماذج للحواضر التي أخذناها كعينة الدراسة.

وعنونت الفصل الثاني بالنشاط العلمي لحواضر المغرب الأوسط.وفيه رصد للمؤسسات التعليمية بالحواضر ومناهج التعليم بها إضافة إلى وصف الحياة الأدبية والفقهية وأشهر زمرة أعلامها، وأشرنا إلى الحياة الدينية في العنصر الثالث من هذا الفصل وختمنا الفصل بالتطرق إلى القضاء والأوقاف وعلاقتهما بالتعليم، أما الفصل الثالث: وهو بعنوان النشاط الفكري لحواضر المغرب الأوسط وفيه ثلاث عناصر جاءت كالتالي: الحركة التأليفية ونماذج أعلامها، الرحلات العلمية بين الحواضر وخارجها، ومظاهر المبادلات الفكرية.

4. المصادر والمراجع المعتمدة:

معتمدين في هذه الدراسة على جملة من المصادر والمراجع حسب محتواها وما يناسب العناصر المتطرق إليها، حيث اعتمدنا في الفصل الأول على جون ب وولف: الجزائر واوروبا، المهدي وسعيدوني نصر الدين: الجزائر في التاريخ ج4 .أحمد توفيق المدني محمد عثمان باشا، الأغا مزاري طلوع سعد السعود وغيرهم، أما الفصل الثاني والثالث فاعتمدنا على كل من أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ج1 ج2، ابن ميمون التحفة المرضية، تراجم كل من الحفناوي: تعريف الخلف، الفكون منشوره نويهض ومعجم أعلام الجزائر، ابن مريم وكتاب البستان، كتب الشيخ المهدي بوعبدلي، والرحلات الجزائرية والمغربية.

5. صعوبات الموضوع:

وككل بحث علمي حاولنا فيه قدر الإمكان وحسب ما يسمح به المادة العلمية والوقت المتاح اللذان كانا معوقان رئيسيان للوصول إلى غاية الدراسة وهو معرفة مدى موضوعية آراء المؤرخين حول مستوى الثقافة بالبلاد في العهد العثماني، وصراحة يتطلب الموضوع دراسات عديدة ومتعمقة ومقارنة بين هذا الإقليم وغيره من الأقاليم كالدول المجاورة له لتحقيق موازنة علمية، وعموما نرجو أن يكون هذا البحث قد فتح بعض النوافذ العلمية التي تمد أصحاب العلم والمعرفة بمبتغاهم وأن يخدم المعرفة التاريخية ككل.

الفصل الأول:

تمهيد حول الأوضاع العامة للمغرب الأوسط

خلال الفترة)10هـ14ه)(16م19م)

1. الأوضاع السياسية والتاريخية
2. الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية
3. مميزات وخصائص النشاط العلمي والفكري بحواضر المغرب الاوسط

تمهيد:

إذا تتبعنا المسار التاريخي لأوضاع المغرب في بدايات القرن 16م نجد أنه يشمل على جملة من المتغيرات والاضطرابات السياسي، كان على رأسها الغزوات الأسبانية وظهور البحارة الأتراك في الساحة السياسية في هذا القطر، حيث شهد «حالة من التأخر والانحطاط في جل دول إفريقيا بسبب الفوضى والاضطرابات الداخلية وعدم الاستقرار وكثرة التنازع على الرئاسة، وعدم الانتباه إلى الأخطار المحدقة من أعدائهم المقابلين لهم على الضفة الأخرى من البحر المتوسط، وإهمال أمر الرعية وتركها لشؤونها» [1]، وبالنظر لهذه الأوضاع والمعطيات التي عاشها المغرب الأوسط (الجزائر) خلال الفترة فإننا سنحاول معالجة أو تقديم لمحة عامة حول الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية لهذا القطر في ظل تواجد الأتراك به، وسوف نتطرق في البداية إلى الجانب السياسي في سياقه التاريخي.

1- الأوضاع السياسية والتاريخية:

«إن الأحوال العامة للمغرب العربي في أواخر القرن15م عرفت تقهقرا اقتصاديا واضمحلال اجتماعيا صاحبه سوء الأحوال الصحية والمعاشية وازدادت مع وطأة هجمات الأسبان إلى السواحل وشيوع الفوضى وانعدام الأمن، فخربت المدن وافتقر الريف من سكانه حيث أصبح [المغرب الأوسط عبارة عن كومة من الأنقاض]».[2] ففي أواخر القرن 15م، فوجئت الجزائر بالاحتلال الإسباني وكانت حينئذ مقسمة إلى نحو خمسة عشرا جزءا، وكل جزء تهيمن عليه عشيرة أو قليلة عربية أو بربرية فقبيلة سويد بن عامر [3] كانتا تسيطران على معظم سهول وهران، وآل المقراني [4] يتصرفون في القبائل الصغرى، والقبائل الكبرى تحت تصرف آل القاضي [5] ومقر إقامته جبل كوكو، ومدينة الجزائر وسهول المتيجة تحت تصرف قبيلة الثعالبة [6] ورئاستهم أنذلك في آل التومي، بالإضافة إلى حكم القبائل في مناطق لا تخالها في تصرفاتهم أحكام الملوك.

---

(1)- محمد المهدي بن علي شغيب: تاريخ مدينة قسنطينة، قسنطينة، مطبعة البحث، 1983، ص46.

(2)- نصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000م، ص558.

(3)- بني عامر: قبيلة في الغرب الجزائري تسكن السهول القريبة من مدينة وهران وهي التي تعاونت مع الأسبان في حرب مع الأتراك.

(4)- **آل المقراني:** هي أسرة حكمت بجبال بني عباس بمنطقة القبائل الصغرى وأسس بها قلعة خصبة وتراجعت علاقتهم مع الأتراك بين السلم والعداء، لمزيد من المعلومات أنظر:: مارمول كربخال: افريقيا ص385. -و بومولة نبيل: صفحات من تاريخ بجاية في العهد العثماني.

(5)- آل القاضي: امارة بمنطقة القبائل الكبرى أسسها احمد بن القاضي تمركزوا على جبل كوكو ولها عداوة مع الإمارة المجاورة إمارة بن عباس أنظر:: بوملة نبيل صفحات من تاريخ بجاية.

(6)- الثعالبة: قبيلة التي كانت تسيطر على مدينة الجزائر وما جاورها وكان شيخها هو سليم التومي أنظر: مبارك الميلي، ص43 الذي طلب الدعم من خروج للتحرر من الأسبان. لمزيد حول القبائل القاطنة بإقليم المغرب الأوسط أنظر: ابن خلدون ديوانه، ج6.

هذه جملة أحوال المغرب الأوسط بعد انهيار دولة الموحدين وقيام الزيانيين بحكمها في تلمسان، غير أن الأهالي والأمراء والأعراش والقبائل كلها استشعروا ضعف الملوك زادوا في تمردهم، خاصة أن بني زيان كانت بين نارين تحارب تارة ملوك بني مرين بالمغرب، وتارة بني حفص ملوك تونس، بالإضافة إلى أن أهالي الجزائر كانوا يتعاونون أحيانا مع الأعداء ضد مملكتهم[1].

وقد تزامنت مع هذه الظروف سقوط آخر معاقل المسلمين بالأندلس وهي غرناطة في يد الأسبان يوم 2 جانفي 1492م وهي البداية التي شكلت المرحلة الجديدة في برنامج التوسع الأسباني، ومع تنامي أحقادهم على المسلمين الأمر الذي جعل ملوك الأسبان بالتعاون مع قساوستها يشعلون الحرب ضد المسلمين ويغذون المسحيين على ضرورة مواصلة هجوم المسلمين بالتحديد الإعداد لغزو شمال إفريقيا[2]. ونظرا لتوحد جهود الصليبيين وتنافسهم على احتلال المغرب، وما أصاب الأندلس فقد حذر العلماء من خطورة الوضع الساري ومن هؤلاء العالم الأديب الشيخ محمد التواتي [3] فقال في قصيدة له فيخاطب فيها أهل وهران قائلاً:

يأهل وهران أنظروا نظرة شفقة لبلدتكم قبل أن تتردتي

إلى أن يقول:

فلا تهملـــوا أمـــر الأعـــادي فإنهـــم بحـــــال اجتمـــاع واتفـــاق وشـــدة

وقد قطعوا قطعا فـــإن ظفـــروا بكـــم فقـــد ظفـــروا طـــرا بأهـــل الجزيـــرة

ولا يحمي مرســـاكم ضـــعاف رجـــالكم ولا البدو بل تحميـــه أهـــل الجزيـــرة

فإن لهـــم بـــالطعن والضـــرب خبـــرة وكـــم فتكـــوا بـــالكفر أكبـــر فتكـــة[4]

وهنا يتضح لنا أن هذا العالم الجليل يتنبأ ويحذر الأهالي من احتلال الصليبيين لأراضيهم ودعاهم إلى الجهاد تحت راية الخلافة الإسلامية التي كانت حينئذ تحت سيوف الأتراك الذين امسكوا بزمام الأمور في المشرق العربي كله.

---

[1]- المهدي بوعبدلي: تاريخ المدن، جمع وإعداد: عبد الرحمن دويب، الجزائر، عالم المعرفة، ط1، 2013، ص-ص(282- 283).

[2]- مبارك بن محمد الجيلالي الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، الجزائر ، مكتبة النهضة الجزائرية، دس، ص19، 21.

[3]- **محمد التواتي** هو ابن عبد الله محمد بن مزيان التواتي لقبا (1031هـ) أصله من المغرب من قبيلة الرواشد انتقل إلى جبل الزواوة ودرس قيما ثم ارتحل إلى فاس، كان له شأن عظيم بقسنطينة وله دراية بالنحو ومعرفة به، وقال عنه ابن الفكون في منشور الهداية: وممن لقيناه وقرأنا عليه الشيخ الأستاذ النحرير النحوي آخر المتكلمين لسان حجة المسلمين. أنظر: ابن الفكون: منشور الهداية، ص.ص(57- 58- 59).

[4]- المهدي بوعبدلي: مرجع سبق ذكره، ص 284.

وبالفعل لما عزم الملك الأسباني على احتلال المغرب الأوسط، أول ما احتله هو المرسى الكبير بمدينة وهران، «...ثم جهز جيشا لوهران وغزاها فملك برج مرساها في أول ربيع الثاني سنة إحدى عشر من العاشر» الموافق لـــ 2 أوت 1505م، وتمكنوا من المدينة بفعل خيانة يهودي للمسلمين وهو واحد يقال له زاوي بن كبيسة المعروف بابن زاهور إذ أدخل جيشا النصارى غفلة إلى المدينة، فصار الجيش يجرمون أضعافا بحق المسلمين: فقتلوا، ونكبوا، واسروا وبعد ما تمكنوا من هذه المدينة توغلوا في داخلها واستولوا على المناطق المجاورة وذلك بفضل الجوسسة التي نشروها حيث أنه بعد سيطرتهم «...قويت شوكتهم، واشتدت قوتهم، وتعددت غزواتهم على الأقربين والأبعدين والأنزلين والأصعدين»[1] واستطاع بيدرو نافارو Navarro [2] أن يحتل ميناء المرسى الكبير وبجاية وفاليز إلى غاية طرابلس خلال سنوات(1508 م1511م)[3]، حيث تمكن سنة 1510م من احتلال مدينة بجاية وفوجئ أهلها بهجومه ففروا إلى الجبال ولم يستطع سكانها الدفاع عنها بسبب الأسلحة المتطورة التي استخدمها المهاجم [4].

كما غزا الأسبان تلمسان سنة تسع وأربعين من العاشر الموافق لـــ أوت 1558م ويعود ذلك إلى اختلاف كلمة أمرائها حتى سار الأمير فيها يتحالف معهم ضد أخيه المسلم وأمثلة ذلك أن كبير قلعة بني راشد سأل النصارى الإعانة لغزو تلمسان فكان له ذلك شرط أن يبقى ابنه ضمانة على ذلك، وغزا الأسبان مدينة الجزائر واستولوا على برجها وهو برج الفنار، وصارت لهم جباية حجيجية وضرائب على أهل متيجة [5] وبدافع الحقد ضد المسلمين فإن معاملة الأسبان للشعوب المحلية كانت قاسية وعنيفة الأمر الذي جعل المدن تتسارع إلى إعلان الولاء لدى القائد الأسباني.

وقد اتبعت إسبانيا إستراتيجية محكمة لأجل ضمان تواجدها وذلك ببناء قواعد وحصون ومراكز تثبت فيها وجودها وتعزز سيطرتها على المنطقة عن طريق مراقبتها، ونتج عن ذلك سيطرتها على جل السواحل والقضاء على نشاط التجاري فيها، والقضاء على القرصنة ضد الممتلكات الأسبانية وفي نفس الوقت الذي كان الأسبان يعززون قوتهم في سواحل إفريقيا كانت حفنة من المغامرين الأتراك قد وصلت إلى وسط البحر المتوسط لتبدأ قصتهم. [6]

---

[1]– الآغا بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن 19م، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، ج1، دار الغرب الإسلامي، 1996، ص–ص(211، 2012).

[2]– هو الدون ديغوفيرناديز ديكردوفان، عينة الملك فيرديناند والكاردينال فيميليس قائدا عاما للإشراف على الأسطول والقيام بالحملة الأسبانية على السواحل الشمالية للمغرب بالأوسط.أنظر: بوملة نبيل: مرجع سبق ذكره، ص75

[3]– جون بول وولف: الجزائر وأوربا، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص26.

[4]– مارمول كاربخال: افريقيا، ج2، ترجمة محمد حجي وآخرون، ج2، الرباط، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، 1989، ص377.

[5]– الأغابن عودة المزاري: مصدر سبق ذكره، ص–ص(218، 220).

[6]– جون بول وولف، مصدر سبق ذكره، ص(26– 27).

أجمع المؤرخون على أن سبب قدوم الأتراك إلى الجزائر (المغرب الأوسط) هو امتلاك النصارى فيها وظلمهم لأهلها والذين بادروا بنجدته المسلمين، وأولى من استدعى الأتراك إلى إقليم المغرب الأوسط هم أهل بجابة [1] تضرعا لاستنجادهم قصد استرجاع وفتح بجاية التي كانت مقسمة بين زعيمين متصارعين زعيم قلعة بني عباس وأمير إمارة كوكو ابن القاضي [2] الذي استطاع عروج أن يكسبه إلى صفه في المعارك ضد الأسبان[3]، كما كان لظهور البحارة الأتراك عاملا في توازن القوى الحوض المتوسط وكان ذلك في مدار القرن 16م حيث كان عروج يحارب حرب ثأر ضد رجال الذين استرقوه في جنوة ومعهم فرسان القديس يوحنا، ولم تحل سنة 1510م حتى انتشر صيتهم وشجاعتهم وإقدامهم بسبب الغنائم التي تحصلوا عليها بالإغارة على سفن العدو وبقدومهم إلى بجاية كان أول اصطدام لهم مع الأسبان غير أن عدم تكافئ العتاد أدى إلى خسارة عروج وفقدانه لذراعه بسبب قذفة بكرة مدفع فانسحب هو ورجاله في فوضى كبيرة[4].

وبعد سنوات تحديدًا سنة 1515م توجه عروج إلى مدينة الجزائر بعد النداء الذي وجهه إليه أعيانها على رأسهم سليم التومي(•) فرد خير الدين بسرور تام وقسم قوته بين البر والبحر [5] وأثناء توجه إلى الجزائر فتح مدينة شرشال وترك فيها حاميه لحراستها وقضى على مرافقيه الخونة الذين كانوا يشكلون بالنسبة إليه خطرا كبيرا، ودخل عروج مدينة الجزائر تحت استقبال أميرها وسكانها الذين اعتبروه محررهم غير أنه كان لعروج أهداف بعيدة المدى، فقرر أن يقضي على منافسيه منهم سليم التومي[6]، ثم

---

[1]– أغا مزاري: مصدر سبق ذكره، ص249.

[2]- HAYDOU. DE GRAMMONT: HISTOIRE D'ALGER SONS La Domination Turque (1515- 1830) paris ، Ernest Leroux ، 1887. P21.

[3]–جون بول وولف، مصدر سبق ذكره، ص–ص(28– 29).

[4]–عزير سامح التر: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، بيروت، دار النهضة العربية، ط1، 1989، ص _ص(50– 51).

• هو شيخ مدينة الجزائر والمناطق المجاورة لها سهول المتيجة إلى شرشال.

[5]–عزير سامح التر: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر بيروت، دار النهضة العربية، ط1، 1989، ص ص(50– 51).

[6](–HAIDOU de. Geammont: Op.Cit– p22.

أحبط محاولات الأعيان للتخلص منه وأعدم أعيانها المتآمرين ضده مع الأسبان، ففرض بذلك وجوده بالقوة.

ولم يمضي وقت حتى لجأ إليه سكان الغرب من مدينتي تنس والعاصمة الزيانية تلمسان التي سئم أهلها تنافس حكامها واستعانتهم بالعدو، فترك عروج أخوه خير الدين على الجزائر وتوجه هو وأخوه إسحاق إلى المدينتين، وفي بادئ الأمر خضع لهم الأهالي وكسبوا دعمهم غير أن استنجاد ابن شيخ مدينة الجزائر ووالي وهران بالأسبان قلبت الموازين عليهم وأدت إلى ملاحقة عروج بعد عزمه على العودة إلى مدينة الجزائر بسبب الاضطراب الأمني فيها، فتوفي هو وأخيه• ولم ينجوا سوى قلة[1]، إن هذا الحادث وإن بدا كنهاية إلا أنه في الواقع بداية لظهور إيالة الجزائر المحروسة، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الأتراك كانوا يأتون إلى مرسى الجزائر فيبيعون ما في صناديقهم ، أو يتبادلونها، وحصل أن إقترب الأعيان من خير الدين وعرضوا عليه مبايعته والتملك عليهم فأجابهم بنعم، ثم حصل بينهم خلاف فغضب عليهم ورحل ولم يرجع إلا بعد حول- خاصة أن نشاط الإخوة بربروس تعثر بعد مقتل أخويه – ولما رجع هذا الأخير عرضوا نفس الأمر، فقبل بشرط قتل المفسدين، فملك خير الدين الجزائر سنة الخامسة والعشرون من القرن العاشر وذكر أبو راس ذلك في أرجوزته فقال:

في عام كله من القرن العاشر كان ابتداء الترك بالجزائر

وامتد ملكهم بها كافا وسين حتى إذا اكتمل الوعد كان البين [2]

وتحقق ذلك بتحقق شرط خير الدين المتمثل بالاتصال بالسلطان سليم(•) وسلطان الدولة العثمانية وإعلان الولاء له وبعث خير الدين لذلك هدايا للسلطان مع الحاج حسين فرد السلطان العثماني بأن بعث ألفين من الجنود الإنكشارية و 4آلاف من المشارقة الآخرين مجندين في الميلشا وكذا أرسل بعض المدافع والذخيرة الحربية، واشترط بذلك أن تكون الجزائر إقليما عثمانيا تابعا لها حدوديا وبالأحرى أنه وافق على طلب انضمام الجزائر إلى الخلافة – وبالتالي كانت هذه الخطوة الحاسمة في تطور الإيالة الجزائرية العثمانية التي سوف تستمر إلى غاية 1830م[3].

واجه خير الدين جملة من الصعوبات حيث وجد نفسه في مواجهة قوات عديدة الأسبان في وهران ومرساها، جنوب وهران يتمركز ملك فاس، وفي الشرق الملك الحفصي التونسي، وفي الداخل زعامات

• حول وفاة عروج، وأخوه إسحاق أنظر: مذكرات خير الدين بربروس.

[1]– جون. ب وولوف: مصدر سبق ذكره، ص31.

[2]– ابن عودة المزاري: مصدر سبق ذكره، ص–ص(250، 251).

• **السلطان سليم الأول بن بايزيد الأول** حفيد السلطان محمد الفاتح، رابح السلاطين العثمانيين والذي تحقق في عهده التوسع في المشرق العربي، وأصبح بذلك خليفة للمسلمين، وخادم الحرمين الشريفين، وفي عهده أصبحت الجزائر ولاية تابعة للدولة العثمانية

[3]– جون ب وولف: مصدر سبق ذكره، ص32.

محلية ترفض الانصياع لأوامره، وخلال عقد العشرينات 1520م- 1530م واجه خير الدين مشاكل في توحيد مناطق الشرق خاصة مع تمرد ابن القاضي أمير إمارة كوكو بالتعاون مع التونسيين الأمر الذي دفع به إلى الخروج من مدينة الجزائر، إلا أن الأعمال التخريبية التي قاموا بها كانت في صالح الأتراك واسترجعوا بذلك مكانتهم، وهو نفس الشيء الذي حصل في مناطق الغرب غير أن مناء مستغانم وفاليز كانا مفتوحان للأتراك الأمر الذي عزز قوتهم ومكانتهم في المنطقة، شرع خير الدين في تطبيق سياسته القائمة على جعل الانكشارية مقيمة في كل مدينة ليضمن بها ولائها.

ومن المشاكل التي واجهت خير الدين هي حصن الأسبان الذي بنوه في المرسى وبعد حصاره سنة 1529م، جعل خير الدين الأسرى الأسبان يبنوا الجسر الرابط بين الحصن ومرسى المدينة وذلك بتهديم الحصن واستخدام حجارته في البناء ، وبالتالي فإن استرجاع مرسى المدينة أكسب خير الدين سمعة وقوة تخافها أوربا ورحب بها السلطان العثماني[1]، بعدما تمكن خير الدين من استعادة البرج وربطه بمرسى مدينة الجزائر اشتدت وطأة الأسبان على الأتراك، فأصدر السلطان العثماني فرمانا يقضي على تسمية خير الدين قبطان باشا أي أميرال الأسطول العثماني فتوجه إلى اسطنبول بعدما وضع ابنه على رأس الإدارة الجزائرية[2] وبذلك أرسى خير الدين تنظيمًا للمدينة وقام بوضع الأسس الأولى لقيام الإيالة الجزائرية التي أصبح لها أهمية بالغة وذات صيت في المتوسط وتعين عليها حاكم مسؤول عن أراضيها والأراضي التابعة لها[3]، وبالتالي فإن بعد هذه الأوضاع تبدأ مراحل الحكم العثماني بالجزائر بمختلف أحداثها وتطوراتها في كل مرحلة، ولا تكتمل الصورة النهائية عن الحالة السياسية إلا بالكشف عن التطور السياسي والإداري للإيالة الجزائرية طوال عهد الأتراك بها.

بعد استقرار الأتراك بالجزائر، كان لا بد من تنظيم شؤون البلاد بشكل محكم ومنظم، يشمل على القائمين عليها تسييرها وتدبر شؤونها، ولأجل تحقيق ذلك مرت الإيالة الجزائرية في مراحلها بأربعة أطوار اتفق عليها المؤرخون وقسمت على النحو التالي:

- **الطور الأول:** ويمكن تقسيمه إلى دورين: (1512- 1587م).

أ- **الدور الأول:** عصر فتح لخير الدين بربروس (1512- 1546م) ودام 34 عاما.

---

[1]- جون بول وولف، مصدر سبق ذكره، ص-ص(39، 40، 41).

[2]- أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766- 1791)، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص26.

[3]- حسين بن رجب شاوش: تقيدات ابن المفتي في تاريخ بشوات الجزائر وعلمائها، جمعها واعتنى بها فارس كعوان، الجزائر، بيت الحكمة، ط1، 2009، ص80

ب- **الدور الثاني:** حكم الولاة البيلربايات (باي البايات) (1546- 1587م) امتدَّ 41 عاما.

غير أننا جمعنهما في طور واحد ذلك أن خير الدين حصل على لقب البيلرباي وهو أول لقب حمله حاكم إيالة الجزائر ثم من تلاه إلى غاية 1587م حملوا نفس اللقب إلى أن استبدله السلطان العثماني بلقب البشوات وهو الدور الثاني.

- **الطور الثاني:** حكم البشوات كان لمدة ثلاث أعوام، (1587م، 1659م) دام 72 عاما.
- **الطور الثالث:** حكم الأغوات (1659م- 1671) دام 12 عاما.
- **الطور الرابع:** حكم الدايات (1671- 1830) دام160 عاما.

وبالتالي فجملة حكم الأتراك بالايالة الجزائرية بلغ عمر 319 عاما[1]

وعليه فإن بداية نظام الحكم بالايالة الجزائرية كان نظام البيلرباي وهو من أزهى عصور الحكم التركي[2]، إذ تميز بالاستقرار والقوة وظهور الأسطول البحري الجزائري واستمر إلى عهد الباشوات. [3]

كانت سلطة حاكم الجزائر في بداية العهد العثماني تشمل جل المغرب الإسلامي باستثناء الأقصى، وكان لكل من تونس وطرابلس الغرب ولاية تحت حاكم والذي كان تحت نظر حاكم الجزائر الأعلى، ولذلك كان يلقب بالبيلرباي أي باي البايات أو (أمير الأمراء) وكان السلطان العثماني هو من يعين الحاكم بالجزائر الذي هو تحت طاعته وحكمه إلى أن حدث انقلاب في القرن 17م[4]، واستطاعت الجزائر في الفترة الأولى من العهد العثماني التخلص من الاحتلال الإسباني باسترجاع برج الفنار 1529م وتحرير بجاية 1555م وإنهاء الوجود الأسباني بتونس[5]، ويضاف إلى هته النقاط بداية ظهور الصراع بين الانكشارية* ورياس* البحر، وهي بروز السلبية في هذه الفترة، حيث أن شغف الانكشارية للوصول إلى السلطة والحكم جعلها تتنافس مع رياس البحر، وتحاول إثارة المشاكل ضدهم، وتحاول الإطاحة بالنظام

---

(1)- أحمد توفيق المدني: مرجع سبق ذكره، ص23.

(2)- عمار بوحوش: تاريخ الجزائر السياسي من البداية إلى غاية 1962، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، ص57.

(3)- نصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ، ج4، العهد العثماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1984، ص40.

(4)- محمد المهدي بن علي شغيب: مرجع سبق ذكره، ص-ص(50، 51). يجب أن نشير هنا إلى أن الأتراك في سياستهم تجاه البلدان تقضي بعدم التدخل في الحياة الخاصة لهذه البلدان، مما يجعل حكمها ظاهريا، ودليل ذلك أن الأتراك حكموا القطر الجزائري بقوة عسكرية لا تعد ببعض الآلاف، إذ قدرت (3681) رجل، وبالتالي فإن السلطة الجزائرية لم تكن احتلالا عسكريا كما يدعيه البعض، أنظر: أحمد توفيق المدني ص-ص(158- 159).

(5)- عمار بوحوش: مرجع سبق ذكره، ص58.

* **الانكشارية:** هي كلمة تعني الجندي الجديد، وهي التركية العسكرية للجيش البري بالايالة الجزائرية.

* **رياس البحر:** هم فئة الجنود البحرية الذين شكلوا الأسطول البحري وقادوه في البحر المتوسط لمدة تزيد عن ثلاث قرون.

الذي شكله خير الدين باشا وسار على منواله أتباعه إلى حسين باشا، أين أثار هؤلاء رغبته في التحرر والانفصال عن الدولة العثمانية وأخذت هذه الأخيرة بهته الشائعة فعدلت من نظام الحكم إلى عهد البشوات. [1]

تميز هذا العهد بازدياد الهوى والتنافس بين القوتين البحرية والبرية ومحاولة إخضاع المصالح الجزائرية لمصالح الدولة العثمانية، وبرزت القوى البحرية للأسطول الجزائري فسارعت الدولة الأوربية على عقد الاتفاقيات والمعاملات وأمام تعثرها شكلت هذه الدول حربا مسيحيا ضد الجزائر سنة 1701م[2]، أما في العهدين الأخيرين للإيالة الجزائرية العثمانية فإن نتيجة تعاقب الحكام وحدوث الانتفاضات داخل

الجيش والصراع المتجدد بين الكراغلة والأتراك قد أدى إلى التأثير بالضرر والضعف على النشاط التجاري واضمحلال الصناعة وضعف الزراعة، وهذه الفترة الأخيرة من العهد العثماني شهدت اضطرابا في نظام الحكم إنتهت في الأغلب بالاغتيال أو الإعدام أو العزل للحكام خاصة في أوائل القرن 18م وكانت هذه الظاهرة لا تقتصر على دار السلطان بل تتعداه إلى الأقاليم الداخلية للبلاد. إن هذه الأوضاع بدأت بوفاة صالح رايس، ورفض استقبال مبعوث السلطان حيث أعلن الجيش عن تمرده وحدث الصراع بين الكراغلة والإنكشارية انتهت بإبعاد الكراغلة عن الحكم سنة 1629م، كما اشتدَّ الصراع بين الإنكشارية ورياس البحر حول مقاليد السلطة والحكم[3] وهذا ناهيك عن الأوضاع الخارجية خاصة مع ازدياد التحرشات الأوربية، والتهديدات المباشرة على النشاط البحري الجزائري الذي أخذ أبعادا عالميا فاندرج في إطار النزاع بين القوتين العالميتين الإسلامية والمسيحية للسيطرة على حوض المتوسط ورغم ذلك فالبحرية الجزائرية سيطرة من سنة 1528م إلى غاية القرن الثالث من عمرها شنت خلالها غارات على الأسبان ونقلت أعدادا كبيرا من الموركسين* على متنها إلى بر الأمان. [4]

لعل أهم فترة في هذه الأنظمة هي فترة الدايات التي أصبحت بموجبها الجزائر دولة مستقلة حين تخلصت من باشا الأستانة، وبالتالي تحصل الداي على الامتيازات، حيث أصبح يتمتع بالسلطة التنفيذية واللقب الشرقي الباشا، وهذا جعل العلاقة بينها وبين الباب العالي لا تتعدى نطاق المصلحة المشتركة فحين كانت الدول الأوربية تتعامل معها على أنها كيان سياسي مستقل والدايات حكام كاملي الصلاحية. [5] ماعدا ذلك فقد وصل استقلال الإيالة إلى تحديد علاقاتها وطبيعة معاهداتها خاصة أنها أصبحت القوى الضاربة في

---

[1]- عزيز سامح الترز: مرجع سبق ذكره، ص138.

[2]- عمار بوحوش: مرجع سبق ذكره ، ص-ص(58، 59).

[3]- سعيدوني والمهدي: مرجع سبق ذكره، ص_ص(40 ، 41).

* الموركسيون، لفظ يطلق على المهاجرين الأندلسيين الذين تم نقلهم إلى سواحل المغرب الإسلامي عن طريق البحارة الأتراك والذين فروا من العذاب في بلادهم.

[4]-سعيدوني والمهدي: مرجع سبق ذكره، ص41.

[5]- نفسه، ص 15، 16.

البحر المتوسط. وهذا كان ناتج إنتظام الإدارتين السياسية والعسكرية بصفة كانت تحسدها عليها الدول الأوربية. [1]

ولتكتمل صورة الجانب السياسي لابد من إعطاء إطار وشكل الإدارة الجزائرية في العهد العثماني والتي يمكن تقسيمها إلى أسس على النحو التالي:

- الأساس الأول: تتطرق فيه الإدارة المركزية بتركيبتها وموظفيها والإدارة الإقليمية ثم سوف تتحدث عن نظام الجيش وميزانية الدولة ومواردها وصورة عن البحرية الجزائرية.

استكملت الجزائر العثمانية في نهاية القرن 18م تنظيماتها الإدارية واستقرت أجهزتها إلى أن أصبحت السلطة التنفيذية بيدي الداي، يساعد في أداء مهامه موظفون سامون في الدولة، وبالتالي فإن الداي كان يمثل السلطة العليا في البلاد وكان يتم تعيينه من طرف الأوجاق في الفترة الأخيرة، ويختار من بين كبار الموظفين والضباط المتقاعدين الذين كانوا يشكلون الديوان الكبير[2]. وأصبح لهذه الحكومة مقرا في انحدار جبل داخل معقل القصبة، ولها تنظيم اقتصادي وعسكري وقضائي. [3] وكان الديوان الإستشاري الذي يعتبر بمثابة حكومة تتكون من جملة الأعضاء هم كالتالي:

الداي كما أشرنا هو السلطة العليا في البلاد، يساعده في مهام مجلس إستشاري خاص يتكون من:

- الخزناجي: وهو المكلف بأموال الدولة الداخلة والخارجة.
- وكيل الخرج: مكلف بالأسلحة الداخلة والخارجة وصناعتها والمتصرف في شؤون العسكرية للبحرية والبرية وموزع للغنائم.
- خوجة الخيل: مكلف بمراقبة وإدارة أملاك الدولة.
- الأغا: القائد العام للجيوش الإنكشارية والمكلف بدفع مرتبات الجند والمشرف على شؤونهم والحامي لحدود الإقليم الجزائري. [4]
- البيت المالجي: مراقب الأملاك والثروات الخاصة بالدولة والأملاك المصادرة أو التي ليس لها ورثة.

ثم يأتي بعدهم الكتاب الأربعة: في مرتبة سامية أيضا خاصة بعد تزايد نفوذهم في عهد الأتراك الأخير بالايالة وهم كالتالي:

- الكاتب الأول: يشرف على سجلات الدولة.

---

[1]- أحمد توفيق المدني: هذه الجزائر، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 2001، ص80.

[2]- سعيدوني والمهدي، مرجع سبق ذكره، ص16.

[3]- حسن بن رجب شاوش: مصدر سبق ذكره، ص81.

[4]- محمد ابن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص18.

- الدفتر دار: يراقب السجلات، ويسجل الصادرات والواردات من الضرائب والرسوم المختلفة.

- وكيل الخرج الصغير: يحفظ السجلات المتعلقة بغنائم الجهاد البحري يضبط أمور الديوان.

الكاتب الرابع أو الرقمجي:مهمة هي المحافظة على السجلات الرسمية للدولة التي تتصل بالشؤون الخارجية. [1]

إضافة إلى الكتاب العرب وهم إثنان يقومان بتحرير الرسائل للباي والقياد، باي تونس، باي طرابلس، وسلطان المغرب، أما الدول الأوربية فيتم التعامل معها مع الكتاب الأربعة الأتراك. مع وجود الديوان العام وهو المجلس العمومي يتكون من 300 عضوا تقريبا. [2]

ويقوم هذا الديوان بمهام اجتماعية واقتصادية وهو على شكل مجموعات ويعتبر الداي في هرم السلطة فيه، ثم لدينا مجموعة الخوجات، مجموعة القياد يتولون الإشراف على شؤون البوادي، ويقرون الأمن ويقومون بجباية الضرائب من الأرياف، والحرص على سير الخدمات الاجتماعية داخل المدن.

- مجموعة الحكام: مسؤلون على المدن، الضرائب فيها، الأمن والهدوء، تنفيذ الأحكام بالإضافة إلى تسيير أمور النقابات المهنية والطوائف العرقية.

- مجموعة الضباط المتقاعدين: يوزعون المناصب والرواتب داخل الانكشارية ويحق له معاقبة الأتراك.

- مجموعة الخدم والنواب: يقومون بخدمات داخل القصر.

- الشيخ الناضر: يشرف على الأحباس ووكلاء الأوقاف وتنظيمها ويستخلص موادها وينظر في أوجه إنفاقها.

- المحتسب أو الشرطة: يراقب الأسواق والدكاكين ويتأكد من الأسعار والموازين.

- المزوار: يطبق العقوبات الجسدية، ينفذ أحكام الإعدام ويراقب أهل الدعارة ويسهر على أمن الشوارع ليلا ونهارا.

- إضافة إلى الدلال والبراح، الأول ينادي على البضائع في الأسواق والثاني يعلن الأوامر وقرارات السلطة الحاكمة ويشهرون على المجرمين واللصوص...الخ [3]

وهنا نلاحظ أن في الإدارة الجزائرية الأمور تسير بدقة مدهشة حيث أن كل الموظفين ينشغلون بمهامهم فقط، ويعتبر الموظفون الذين يشغلون المناصب الكبرى الأكثر عددا من الآخرين حيث تبدأ الأشغال عندهم من طلوع الفجر، ويبدؤون في مناقشة الأوضاع والمشاكل المتعلقة بالبلاد إلى غاية العصر ويكون في القصر كلا من الداي والخزناجي والأغا وخوجة الخيل وكبار الكتاب.

---

[1]-المهدي وسعيدوني: مرجع سبق ذكره، ص18.

[2]- أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا، ص_ص(181، 182).

[3]- سعيدوني والمهدي: مرجع سبق ذكره، ص(18، 19، 20).

ويوم الجمعة لا يقع الاشتغال بأي شيء داخل القصر، بل يتجه الداي وطاقمه حكومته وديوانه إلى الجامع منذ الساعة 11 إلى غاية الثانية بعد الزوال وباستثناء هذه الأيام فهم يوم الثلاثاء في عطلة وراحة. (1)

هذا عن الإدارة المركزية وتنظيماتها وبالإضافة إلى هته الإدارة توجد الإدارة الإقليمية والتي تم تنظيمها بتقسيم البلاد إلى بيلكات على النحو التالي:

- بيلك التيطري: هو أول بيلك وقاعدته المدية.
- وثانيه بيلك الشرق: يعني الجهة الشرقية وقاعدته قسنطينة

- وثالثهم بيلك الغرب أي الجهة الغربية (وتنوعت عواصمه واستقرت في وهران بعد فتحها).

وعلى رأس هذه البيالكات بايات لهم التصرف المطلق في الرعية العربية، وللباي خليفتان من الترك أحدهم ينوبه عند خروجه للرعية، والأخر ينوبه في قاعدته عند خروجه إلى الباشا بالجزائر لتقديم الدنوش، وله كاتبان عربيان يكتبان له جميع الأوامر والنواهي، الكبير كاتب السر يقال له باش دفتار والآخر يكتب الرسائل ويسجلها إلى غير ذلك وهو الصغير، بالإضافة إلى وزيران من العرب الأول من أعيان العرب ومن الدواوير ويقال له قايد أغا والآخر صغير وهو من أعيان الزمالة [2] (وهم أعيان السلطة للتحكم بالبلاد).

هذا عن التنظيم الإداري بنوعيته، وكذا كان للإيالة نظام عسكري: كان قائما على الإنكشارية إذ كل ما تعلق بهم من اختصاص الباشا ولهم تنظيم خاص يتبعونه ولا يخالفونه، ومن خالفه يعاقب عن طريق مسؤوله الكاهية أو باجتماع الديوان[3]. ويتكون هذا الجيش من العناصر الآتية: الأوجاق وينقسمون إلى كتائب وفرق وحدات وفصائل وبعدها الفرسان الخيالة يتكونون من الكراغلة وقبائل العرب وثالثهم البحارة يتكونون أغلبهم من المسيحيين المعتنقين لدين الإسلام ورابع التشكيلة هم المدفعيون، وكانت الانكشارية تسير على نظام يكون كالتالي: سنة لحماية المدن وهي النوبة، والعام الثاني لخدمة المعسكرات، والعام الثالث للراحة في الجزائر (العاصمة). ويندرج الجندي في ثكنته وهي مقر إقامته عبر مراتب تبدأ من اليولداش إلى أن يصل إلى رتبة الأعلى وهي الأغا، وقد يصل إلى حكم البلاد. [4]

أما الأساس الرابع في نظام الإدارة الجزائرية هو حول مواردها وسياستها المالية، حيث كانت هذه الإدارة تتغذى من موارد مالية مختلفة ومتنوعة المشارب وهي كالتالي:

---

(1)- أحمد توفيق المدني: مرجع سبق ذكره ص(182، 183).

(2)-أغا بن عودة المزاري: مصدر سبق ذكره، ص270.

(3)- حسين بن رجب شاوش: مصدر سبق ذكره، ص81.

(4)- ابن ميمون: مصدر سبق ذكره، ص_ص(36، 37، 38).

بإعانة من الباب العالي الذي كان يتكلف بنصف مرتبات الجيش إلى حين انفصلت الجزائر عن الأستانة.

بالضرائب المختلفة والمجعولة على القبائل وسكان المدن:

- ❖ الأعشار والزكاة: قدر معين من لدن الشرع، ويؤخذ من نتاج الأرض.
- ❖ اللزمة: ضريبة شخصية، وهي تأخذ غالبا من القبائل الرحل.
- ❖ ضريبة العقار الأراضي.
- ❖ يدخل كراء أراضي الدولة. [1]
- ❖ رسوم سكان المدن وعوائد النقابات المهنية والطائفية. [2]

. بالهدايا التي يدفعها البايات على رأس كل ثلاث سنوات وتسمى الدنوش الكبرى [3]

– الإتاوات والهدايا الإلزامية التي فرضتها القوى البحرية الجزائرية على الدول الأوربية المتعاملة معها تجاريا تدفع لها إتاوات مقابل السماح لها بحرية الملاحة وإعطائها بعض الإمتيازات الجمركية (تخفيضات جمركية) ومما يلاحظ على دفع الإتاوات أنها تختلف حسب طبيعة العلاقة التي تربط الدولة مع الايالة الجزائرية، واستمرت هذه الحالة طوال العهد العثماني متأثرة بقوى البحرية الجزائرية ونشاطها البحري.

وهذا بالإضافة إلى الغنائم البحرية التي تكاثرت في الفترة الأولى من العهد العثماني وبدأت تتناقص إلى حد التلاشي في القرن 18م، ثم عرفت مع نهاية العهد العثماني نموا ملحوظا مع تطور البحرية وزيادة نشاطها الحربية خاصة مع الثورة الفرنسية وفتوحات نابليون، ولعلى أهم الغنائم البحرية كانت: الأسرى الأوربيين، السفن البحرية وما تحتويه من بضائع ومقدرات مالية [4].

وبالعموم فقد تميزت هذه العوائد بالتنوع حيث أن لها مصادر كثيرة من ما تعلق بالحروب الخارجية أو الداخلية (مصادرة أملاك القبائل التي لا تدفع الضرائب، وفرض عليها غرامات مقابل لبقائها آمنة، والملاحظ أيضا إن تنوعها نتج عنه تنوع للعملة الجزائرية[5] حيث كانت تتعامل بأكثر من عملة

---

[1]– ابن ميمون: نفسه، ص_ص(39- 40).

[2]– سعيدوني والمهدي: مرجع سبق ذكره، ص28.

[3]– ابن ميمون: مصدر سبق ذكره، ص40.

[4]– نصر الدين سعيدوني: مرجع سبق ذكره، ص(148- 149).

[•] العملة الجزائرية تصدر بأمر من الداي بإشراف من الخزناجي تمتاز بالتنوع مادتها، واختلاف قيمتها، فهناك السلطان الذهبي، سكة فضية المتمثلة في زوج بوجو أو دورو الجزائر أو ريال بوجو، ربع بوجو، ثمن بوجو، بالإضافة إلى المازونة بأن درجاتها وهناك العملات أو النقود البرونزية والنحاسية ولقي هذه العملات تنافسا قويا من طرف العملات الأجنبية، على رأسها الأسباني كالبلون، الدوكة الدولار، الريال...الخ، إضافة إلى العملات الأوربية الأخرى كالعملات البندقية وعملات تونس ونقود المغرب الأقصى. أنظر: سعيدوني والمهدي، ص27.

سواء مع دول الجوار، أو الدول الأوربية وفي خصوص أوجه الإنفاق فقد حرصت الدولة الجزائرية على تقليل النفقات إلا في الحالات الطارئة اللازمة.

وكما أشرنا سابقا فإن أهم مورد للخزينة وعامل القوى للدولة أو اقتصاد الإيالة الجزائرية، كان متمثلا في الغنائم البحرية وما تجلبه من ثروات والتي هي في حد ذاتها ناتج عن الجهاد البحري للبحرية أو الأسطول الجزائري في عهد العثماني. وكان هذا الأسطول ركيز وأساس وقاعدة المتينة التي بنيت فيها دولة الجزائر قوتها وعظمتها، واشتهرت بها مدينة الجزائر كعاصمة لأقوى أسطول بحري في عهد العثماني بالجزائر وفي تاريخ العالم الحديث.

ويعود ظهور البحرية الجزائرية إلى فترة كانت فيها البلاد الإسلامية تعيش تحت رحمة العالم المسيحي، حيث خرجت هذه الأخيرة من سباتها الفكري والعلمي مع بدايات القرن 15م واتجهت نحو الحركية الإقتصادية وتطورا علميا ونهضة شاملة على حساب تراجع العالم الإسلامي الذي عرف ركودا إقتصاديا وخمولا علميا، وانكماشا ديمغرافيا ولم يحد من النتائج السلبية لهذه الحالة سوى ظهور الدولة

العثمانية وتوسعاتها في البلقان، وقيام الجزائر في نطاق هذه الدولة الإسلامية بمهمة الدفاع عن الإسلام في الحوض الغربي للبحر المتوسط والذي كان نتاج ميلاد البحرية الجزائرية في ظل الإمبراطورية العثمانية طوال الفترة (1518_م1830) .وكان من نتاج ظهور البحرية الجزائرية كقوى في حوض المتوسط جملة من النتائج أهمها:

خلق توازن دولي بين ضفتي البحر المتوسط الضفة الشمالية التي عرفت ميلاد الدول الوطنية الحديثة الأوربية المتحفزة للتوسع والسيطرة على الضفة الجنوبية التي كانت بزعامة البحرية الجزائرية في السواحل الجنوبية الحوض المتوسط والتي ساعدت في الحد من إنهيار العالم الإسلامي خاصة في القرن 16م الذي شهد نشاطا استعماريا للدول المسيحية على رأسها اسبانيا التي كانت تمثل العالم المسيحي ضد العالم الإسلامي. وهو ما سمح للنشاط البحري للبحرية الجزائرية العثمانية بتغير واقع الاحتلال الأسباني بالمنطقة وذلك بتصفية الجيوب الأسبانية باسترجاع الموانئ والمدن الساحلية (جيجل 1514م،تنس 1516م، حصن الصخر: 1529م، بجاية 1555م، طرابلس الغرب 1551م،تونس 1574) وبالمقابل اشتدت هجمات البحارة الجزائريين على السواحل الأوربية حيث بلغ عدد الغارات 33 غارة ناجحة ما بين(1528م_1548م)[1]

وأهم انتصار للبحرية كان استرجاع ميناء وهران نهائيا بعد صراع دام 260 سنة عام 1792، من طرف محمد عثمان باشا[*] ومحمد الكبير[*] باي الغرب[1].

---

[1]– نصر الدين سعيدوني: مرجع سبق ذكره، ص_ص(142، 143).

[*] محمد عثمان باشا داي الجزائر سنة (1766– 1791) وهو أطول من حكم الجزائر في فترة الدايات، شارك في فتح وهران مع محمد الكبير، وله أعمال مأثورة، لمزيد عن التفاصيل أنظر:: احمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا في ترجمته، ص77 وما يليها.

وعموما يمكن القول أن البحرية الجزائرية نجحت في بداية العهد العثماني من استرجاع سيادة المسلمين على السواحل الجنوبية للبحر المتوسط وهو ما جعل هذه الأخيرة تعطي للدولة الجزائرية مكانة خاصة لدى الخلافة العثمانية حيث أصبحت بمثابة قلعة وذرع واقي ضد العدو المسيحي الصليبي الذي كان يهدد سواحل المسلمين، فاستحقت بجدارة لقب دار الجهاد ولقد أثرت البحرية الجزائرية على مختلف أوجه الحياة بالإيالة سواء على نظام الحكم، حيث أن غنائم الرياس وجهادهم مكنهم بالظفر بالسلطة على حساب الانكشارية إذ أنه خلال الفترة (1517 م1578) الحكام هم من فئة الرياس، وفي عهد الدايات فترة (1959- 1671م) كانوا أيضا من فئة الرياس، أما حين ضعفوا أصبح الحكام يعينون من الضباط الانكشاريين خاصة في الفترة الأخير من عمر الإيالة وبالطبع فإن قوتها الداخلية وازتها قوتها الخارجية

فأثرت على طبيعة العلاقات التي تربطها مع الدول الأوربية من حيث المعاهدات والاتفاقيات حالة سلم أو حرب امتيازات، إعفاءات عن الضرائب الجمركية أو رفعها.

وأثرت البحرية أيضا على الجانب الاجتماعي حيث أدخلت عناصر اجتماعية إلى البلاد وكان دخل البحرية يخفف من عبئ الضرائب على السكان، فكانت أكثر قرب إلى الأهالي من الإنكشارية وزادوا في رفاهيتهم وزداد عدد طائفة الخضر وازدادت معهم ثروات التجارة والبحارة بالعموم.[2]

ومع منتصف القرن 18م دخلت البحرية الجزائرية مرحلة الضعف والإنكماش فقلت موادها وغنائمها وأثر ذلك على الايالة واقتصر دورها في صد العدوان المسيحي على سواحلها فحين عرفت الدول الأوربية تقدما صناعيا مكنها من تحدي البحرية الجزائرية والحد من سيطرة الجزائرية على البحر المتوسط وأخذت حرية أكبر في الملاحة، ونقصت الرسوم الجمركية، وهو ما دفع الدول الأوربية إلى استغلال الموقف فتحالفت ضد البحرية الجزائرية ونشاطاتها في مؤتمرات دولية 1815 بفينا، وإكس لاشابيل 1818م، وهذا ما ساعد على تصفية البحرية الجزائرية والإسلامية بوصفها قرصنة، وأهم الحلقات السياسية التي انتهجتها الدول الأوربية ضد البحرية الجزائرية ودولتها هي الحصار المفروض عليها (1827م- 1830م) من طرف فرنسا[3]، والذي انتهى بسيطرة هذه الأخيرة على الأراضي الجزائرية واحتلالها.

(*) محمد الكبير باي بايلك الغرب أو محمد الفاتح استطاع طرد الأسبان من المرسى واسترجاع وهران نهائيا عام 1792م فلقب بالفاتح.

(1)- نصر الدين سعيدوني: مرجع سبق ذكره، ص، 145.

(2)- نصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، ص_ ص (152- 153).

(3)- نفسه، ص150- 151.

2- الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية:

عرف المجتمع الجزائري في العهد العثماني عدة تغيرات مست جوانب مختلفة من حياته السياسية والإجتماعية، الاقتصادية والثقافية ...الخ وأثرت عدة عوامل على تشكيلاته الإجتماعية وبالتحديد البنية الاجتماعية لهذا المجتمع والتي علاوة على اختلافها وتنوعها اتسمت بمميزات وانطباعات مختلفة حيث نتج عن قدوم الأتراك إلى الجزائر بروز فئات اجتماعية على حساب أخرى، وكان لهذا التغيير انعكاسات على الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وهذا ما سنحاول التطرق إليه، ودمجنا معه الجانب الاقتصادي لكون هذا الأخير ناتج عن فعل هذا المجتمع، والذي كما سوف نرى تأثر وأثر بهته الحالة والتغييرات الاجتماعية...

نبدأ حديثنا في هذا العنصر إلى التطرق إلى الأوضاع الاجتماعية للمجتمع الجزائري في العصر العثماني حيث سوف نتطرق إلى الفئات الاجتماعية (طبقاتها وعلاقتها مع الحكام، طباعهم وتقاليدهم

نتحدث عن الجانب الشكلي، من لباس وطعام، مأكولات ونتطرق إلى عنصر المرأة بالإضافة إلى الإشارة إلى الجانب العقائدي واللغوي).

1. التركيبة السكانية للمجتمع الجزائري:

تنوعت التقسيمات السكانية لدارسي المجتمع الجزائري، فقد قسم الأوربيون المجتمع الجزائري في العهد العثماني إلى سبع مجموعات هي: الأتراك، الكراغلة، العرب والبربر، الأندلسيون واليهود، والزنوج، وذلك لإبراز فكرته العرق عندهم، وحيث ذهب هؤلاء إلى أن المجتمع الجزائري ليس صافي التركيبة إلا أن هذا الأمر طبيعي حيث أنه لا تخل أمة من تعدد الأجناس فيه[1].وهذا التنوع كان ناتج من توافد الأتراك ونشاطاتهم، فعلى سبيل المثال فئة الأتراك كانت في حد ذاتها تتشكل من عدة أجناس، جاء جيء بها بما عرف في التاريخ بالأسرى* الذين اعتبروا من الغنائم البحرية للعملية الجهادية للأسطول البحري للجزائر[2].

---

[1] – آرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2006، ص 52.

[2] – نصر الدين سعيدوني، مرجع سبق ذكره، ص 145.

*الأسرى: كانوا من جنسيات مختلفة، أنظر: فئة الدخلاء لمزيد حول تركيبة وفئات المجتمع الجزائري، أنظر: آرزقي شويتام: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني

ولتسهيل تصنيف السكان أو الفئات الاجتماعية، اخترنا تقسيمها إلى سكان مدن وأرياف والنظر في نمط وأسلوب حياتهم واختلاف مصادر رزقهم وعلاقاتهم بالحكام[1].

سكان المدن الأتراك

يمكن القول أن سكان الجزائر العثمانية مقسمين على شاكلة هرم، حيث يحتل الأتراك الخلص فيه القمة لكونهم أصحاب السلطة فيها ويتمتعون بالقوة في البلاد[2] ،وكانوا مقسمين بين جند البحرية وجند الانكشارية وهذه الأخيرة هي التي حملت امتزاجا عرقيا إذ تتكون من أكثر من عرق (آلباني، أناظولي ...الخ) إضافة إلى الآعلاج الذين أصبحوا جزءا من فرق الانكشارية، ومعظمهم ظلوا غير متزوجين يعيشون عيشة جماعية، في مقراتهم ومساكنهم النظيفة، ويحصلون على كميات متساوية من الخبر والطعام، ويخدم فيها الآرقاء المسحيين، وكان منهم من يتزوج ويفرض عليه آنذاك الخروج خارج **الثكنة***

لكن مع الاحتفاظ بحقوقهم ومستحقاته[3] بالإضافة إلى أنهم يتمتعون بسلطة تسيير ذاتي، فحين يطبق القانون الشرعي والمدني على بقية السكان المسلمين وهذا كان له أثره في تحديد السلوك بين الجماعات[4].

وامتهن الأتراك في هذه البلاد الجندية، ويستطيعون حسب النظام العسكري الوصول إلى أعلى المراتب وهي مرتبة الحاكم، وكانوا لا يشركون الأهالي في الشؤون العسكرية أو أمور الدولة[5]. وتفرعت نشاطاتهم مع مرور الوقت فتجد منهم التجار وأصحاب الورشات الحرفية كالحياكة وصناعة الأسلحة ...الخ.

وقد لوحظ على الأتراك طوال تواجدهم بالايالة أنهم طائفة منغلقة على نفسها عن المجتمع الجزائري بتمسكها بلغتها التركية وبمذهبها الحنفي، وتخضع لنظام خاص ولها جملة من الامتيازات دون غيرها من الفئات الاجتماعية الأخرى[6].وقد ارتفع عدد الأتراك في الجزائر مع بدايات القرن 17م وذلك

---

[1] – سعيدوني والمهدي، مرجع سبق ذكره، ص 87.

[2] – ج .آو.هابنسترايت: رحلة العالم الألماني ج.آو، هابنتسرايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1145هـ-1732م، ترجمة ونقد وتحليل نصر الدين سعيدوني، تونس، دار الغرب الإسلامي، د س، ص 29.

* الثكنة هي مقر إقامة الجند الانكشارية الخاصة بهم، وتتميز بكونها واسعة، نظيفة ومفروشة يعيش في كل حجرة إثني عشر إلى عشرين رجلا.

[3] – جون بول وولف: مصدر سبق ذكره، 160-162.

[4] – وليام سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم، عبد القادر زبايدية، الجزائر دار القصبة للنشر، 2006، ص 99

[5] – ج .آو.هابنسترايت، مصدر سبق ذكره، ص 30.

[6] – صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1830)، الجزائر، دار هومه للنشر والتوزيع، ط2، 2007، ص 375.

راجع إلى تحسن أحوال البحرية الجزائرية غير أن مع أواخر القرن 18م/12هـ بدء الانخفاض يدب صفوفهم وذلك كان راجع إلى عدة أسباب منها : انتشار الأوبئة والحروب الداخلية والكوارث الطبيعية والفرمان السلطاني الذي أصبحت الايالة بموجبه ممنوعة من التجنيد في الولايات العثمانية عكس ما كان سابقا، وبالعموم فقد استمر عددهم بالتقلص إلى أن وصل سنة 1830م، لا يتجاوز 4 آلاف ورحلت فرنسا حين دخولها إلى البلاد ما تعداده ألفين وخمسمائة إنكشاري[1].

الكراغلة:

هم الأطفال المولودين نتيجة لتزاوج الأتراك بالأهالي وكان يسكنون بالمدن الكبرى[2] كمدينة الجزائر عاصمة البلاد التي احتوت على مختلف الأجناس لكونها مقر اجتماع واستقطاب، وهته الفئة كانت مصدرا لتنمية الميلشيا الإنكشارية ولقد شكل وجودهم بالنسبة للأتراك مشكلة حيث أنه في منتصف القرن 17م وبسبب محاولات أبائهم من الحد من أدوارهم انتهى بهم المطاف إلى الثورة والعصيان (حوالي بضعة آلاف منهم مؤيدين بشكل ضعيف من الزواوة وأصدقاء آخرين) كي يستولوا على مقاليد السلطة إلا

أن ثورتهم تم إخمادها، ولم يسمح لهم سوى بالخدمة في القوات المسلحة[3] (المساعدة في جني الضرائب أو إخماد الثورات الداخلية) حيث شكل هؤلاء مع الأتراك حينها جيشاً تعداده مائة آلف رجل[4].

جماعة الدخلاء

" الدخلاء هم أجانب عن البلاد، وليس عن المدينة فقط، أو هم الأجانب عن الإسلام، هذه هي التسمية الأصح، نجد في خانة الدخلاء العبيد السود، والعبيد المسيحيين، والأحرار واليهود "[5].

العبيد المسيحيين: لعلى من نتائج البحرية الجزائرية، ظهور فئة اجتماعية وهم الأسرى المسيحيين، الذين اعتبروا من الغنائم البحرية للعملية الجهادية للأسطول الجزائري البحري، خاصة في بدايات العهد العثماني إلى غاية القرن 17م، حيث قدر عددهم بحوالي مليون نسمة طيلة هذا القرن، وكانوا موزعين بين مصالح البيلك وسكان المدينة، واشتغلوا في القيام بجملة من الأعمال توزعت في الخدمات الاجتماعية

[1] – آرزقي شويتام، مرجع سبق ذكره، ص 61-63.

[2] – عثمان بن حمدان خوجة، المرآة، تعريب محمد العربي الزبيري، الجزائر، منشورات AMEP، 2005، ص 63.

[3]– جون ب وولف، مصدر سبق ذكره، ص 163.

[4] – ج.آو.هابنسترايت، مصدر سبق ذكره، ص 30.

[5]– صالح عباد، مرجع سبق ذكره، ص 360.

والمهام الاقتصادية داخل مدينة الجزائر، وعلى أعمال الفلاحة خارج المدينة[1].وقد تشكلوا من جنسيات مختلفة (اسبانية، البرتغاليين، إيطاليين، ألمانيين) وكانوا يحظون بعناية وحماية إحدى الدول الأوربية التي تكون في سلم مع الايالة الجزائرية العثمانية[2].والتي كان من الواجب الأساسي للقناصل الأوربية هو إفتدائهم المباشر أو التوسط لدى السلطات الجزائرية، وقد استعانت هذه الدول بالبعثات البروتستاتية إلى الإيالة الجزائرية لأجل إعادة الأسرى إلى بلدانهم.

وكان هؤلاء الأسرى يسكنون في مقرات واسعة تشبه بيوت الانكشارية، وتدفع لهم أجور منظمة على أعمالهم، وكانوا يتمتعون بحرية العبادة والتجوال ما عدا فترة الليل[3].

والملاحظ على كتابات المؤرخين حول الأسرى أن أحوالهم كان في بعض الأحيان أحسن من وضع الأهالي في حد ذاتهم، فهؤلاء إن لم يكونوا تحت خدمة الداي أو يكونوا قد بيعوا لسكان الايالة، فإنهم تحت تصرف الدولة.ويذكر أحمد توفيق المدني في حديثه عن الأسرى أن الأسير يستطيع في مدة وجيزة أن يحرر نفسه إذا ما كان مردود عمله جيد، خصوصاً إذا كان يعمل عند عائلة غنية أو لدى الجهات الرسمية[4].

وبالعموم فإن وضعيتهم كانت تتأثر بالعلاقات السياسية، بين الطيبة والسيئة، وكلاهما لها تأثير على الأسرى العبيد، وكان عملية تحريرهم تسمى الفدية أي دفع مبلغ مالي مقابل إعتاقهم وتحريرهم.وقد عرفوا تناقص في إعدادهم ومع تراجع دور البحرية الجزائرية ووصلوا في نهاية القرن 17 إلى ألفين أسير، وفي حدود ألف ومائتين في سنة 1800م[5].

هذا عن الأسرى العبيد أما الأحرار، فكان عددهم قليل، وكان أغلبهم من التجار، بالإضافة إلى القناصل وأعوانهم[6].وممثلي الشركات والوكالات الأجنبية ورجال الدين. وكان هؤلاء ينزلون مقراتهم الخاصة كفنادق معينة أو يقيمون في أحياء منعزلة أو منازلهم وكانوا لا يخضعون للمعاملات المالية والأحكام القضائية والقوانين المعمول بها في البلاد[7].

---

(1)- نصر الدين سعيدوني، ورقات، ص (145-148).

(2)- ج.آو.هابنسترايت، مصدر سبق ذكره، ص 34.

(3)- وليام سبنسر: مصدر سبق ذكره، ص 158.

(4)- أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا، ص 178.

(5)- وليام سبنسر: مصدر سبق ذكره، ص(159-160).

(6)- صالح عباد، مرجع سبق ذكره، ص 361.

(7)- سعيدوني والمهدي، مرجع سبق ذكره، ص 105.

ومما لاحظناه في تصفحنا أن هؤلاء كانوا يتمتعون بالحرية التي قد لا يمكن القول عنها أنهم عبيد، فلديهم حرية المعتقد وممارسة شعائرهم وحرية التقاضي لدى محاكمهم، ويسكنون في مقرات خاصة وله غذاء وملبس وما إلى ذلك، قد لا تكون هذه حياة أسرى في الدول الأوربية التي أكثر اتهام البلاد عن اللاإنسانية في التعامل مع الأسرى ودافعت عن ذلك بشراسة في العهد الأخير من الإيالة الجزائرية، حيث وقع الاتفاق الأوربي حول الجهاد الجزائري على أنه قرصنة، وفرض على الجزائر إطلاق الأسرى، خاصة مع حملة اللورد إكسموث* على الجزائر 1816م والتي أبرمت فيما معاهدة تنص على إطلاق الأسرى والذي بلغ عددهم 1642 أسير، وعند الاحتلال الفرنسي لم يكن عدد الأسرى يتجاوز العشرين فردا[1].

أما العبيد السود فكان مصدرهم التجار من إفريقيا، حيث كانت تجارة العبيد مربحة، وكان سكان الجزائر من أتراك وكراغلة وحضر مدينة الجزائر يقبلون على اقتنائهم للأعمال المنزلية والشاقة، واستخدمهم الأتراك كجند باسم المخزن أو الزمالة بعد تحريرهم[2].

أما فيما يخص اليهود، فيمكن القول أنهم العنصر الأكثر فعالية في جماعة الدخلاء، فكان عدد كبير منهم في مدينة الجزائر، وكان يسددون ضريبة لكل واحد منهم[3]. وقد عاش أكثريتهم في المدن الكبرى خاصة مدينة الجزائر التي كانت تأوي إلى غاية القرن 17م ثلاثة عشر ألف يهودي من أصول مختلفة فكانوا إما يهود مسيحيين أو أوربيي جاؤوا من إسبانيا والبرتغال أو ايطاليا، وكان من السهل تمييزهم شكليا عن طريق لباسهم الأسود وضمنيا عن طريق الصفات التي اشتهروا بها حيث عرفوا بالخبث والحيلة والغش وخيانة الأمانة وهذا الموقف يشترك فيه المسلمين والمسيحيين، فهم كانوا منبوذين اجتماعيا[4].

ومع ذلك فإن اليهود كانوا يتمتعون هم أيضا بحرية العقيدة، وقد كان مسموحا لهم بممارسة شعائرهم الدينية والتقاضي في محاكمتهم، باستثناء الحالات التي يشتبكون فيها مع المسلمين وكانوا يسيرون شؤونهم الخاصة[5].ومارس اليهود السمسرة والربا وكانوا يتوسطون العمليات التجارية كبيرة كانت أم صغيرة وقد احتكروا بعض الصناعات مثل صناعة المجوهرات، وضرب العملة في مدينة الجزائر، وكانت لهم أنشطة تجارية واشتغلوا بالخياطة، وبيع الأقمشة، وقد مكنتهم ثرواتهم وأموالهم من

---

(1)- نفسه، ص 104 .* سميت هذه الحرب باسم السفينة الانجليزية (اكسموث) وهي السفينة الملكية.

(2)- صالح عباد، مرجع سبق ذكره، ص 360.

(3)- ج.آو.هابنتسترايت، مصدر سبق ذكره، ص 33.

(4)- جون ب وولف، مصدر سبق ذكره، ص 167.ر

* يقصد بهم الأسرى المسيحيين.

* سميت هذه الحرب باسم السفينة الانجليزية (اكسموث) وهي السفينة الملكية.

(5)- وولف، مصدر سبق ذكره، ص 169.

احتلال مواقع مهمة في الإدارة الجزائرية رغم أنها كانت محرمة عليهم، ومع العهد الأخير من إيالة سيطروا على الحياة الاقتصادية وأثروا على الحياة السياسية[1] إلى درجة أنهم كانوا إحدى عوامل سقوط الايالة في أيدي المستعمرين الفرنسيين.

جماعة الحضر:

في الحقيقة يأتي الحضر كفئة ثانية بعد جماعة الأتراك والكراغلة غير أننا أكملنا الفئات الأجنبية عن البلاد والتي والملاحظ فيها أن كان بينها علاقات مبنية على المصالح المشتركة فهؤلاء باستثناء سكان الحضر الذين لم يشاركوا في السلطة كان لهم علاقات مع الحكام بطريقة أو بأخرى وشاركوا ولو نسبيا في الحياة السياسية على عكس ما سوف نراه فيما يخص طبقة الأهالي الجزائريين.

الحضر هم السكان الأوائل للمدينة، فرض عليهم الأتراك التبعية المطلقة، وكانوا بعيدين عن السلطة والجيش[2].واهم العناصر التي تشكل طبقة الحضر هم الجالية الأندلسية وجماعة الأشراف[3]. والحضر هم البلدية وهم المجموعات السكانية التي استوطنت المدن منذ أمد بعيد، وبحكم علاقتهم مع الأتراك الذين

أبعدوهم عن الحكم، تجد مهتمين بكسب قوت يومهم، وبعاداتهم وتقاليدهم[4]. وكانوا يشتغلون في المهن الصناعية ويتولون وظائف بالتعليم والقضاء[5].

وإضافة إلى الأهالي نجد المهاجرين الأندلسيين الذين توافدوا إلى الجزائر طوال القرن 16م، نتيجة الاضطهاد الذي لقوه من طرف الأسبان، وانقسموا بين الثغريين* والمدجنون* وقد زاول هؤلاء حرفا عديدة، كصناعة الأسلحة والبارود والأقفال، وغيرهم اشتغل بالتجارة والبناء والخياطة، وصناعة الأحذية، والخزف واستقروا في المدن الساحلية والداخلية (بجاية، تلمسان، شرشال، البليدة، القليعة) وبفضلهم

---

(1)- صالح عباد، مرجع سبق ذكره، ص (361-362).

(2)- ج.آو.هابنسترايت، مصدر سبق ذكره، ص 32.

(3)- نصر الدين سعيدوني والمهدي، مرجع سبق ذكره، ص 97

(4)- ج.آو.هابنسترايت، مصدر سبق ذكره، ص 32.

(5)- نصر الدين سعيدوني والهدي، مرجع سبق ذكره، ص 97

*الثغريين: هم الذين جاؤوا من ممالك أرغوانة وبلنسة وقطالونيا.

المدجنون: هم الذين خرجوا من غرناطة والأندلس بسبب الاضطهاد الصليبي

ازدهرت الحياة الاقتصادية، وتحسنت الأوضاع الاجتماعية في هذه المدن[1]. (نتيجة الخبرات التي كانوا يتمتعون بها).وقد مكنتهم مكتسباتهم ونشاطاتهم الاقتصادية على الحفاظ بعاداتهم وتقاليدهم، فقد تميزوا عن السكان الأهالي برقة الذوق والملبس و المتاع والتفنن بالعمران والنحت والموسيقى..الخ[2].ونظرا لهذا التنوع العرقي الذي عرفته مدينة الجزائر وغيرها من المدن الساحلية انعكس هذا عليها بانتعاش اقتصادي وعمراني، واجتماعي وثقافي حتى أن مدينة الجزائر أصبحت مركز استقطاب لفئات اجتماعية أخرى اصطلح عليها بجماعة البرانية.

والبرانية هم المجموعات السكانية القادمة من المناطق الريفية والصحراوية، والتي يعود أصلهم إلى جيجل وبسكرة وبني ميزاب، والأغواط، وقبائل جرجرة وبني عباس[3]. واحتكرت كل من هاته الجماعات نشاطا مهنيا معينا، فمثلا سيطر الميزابيون على الحمامات، وشكلوا أغلب في المدينة أغلب الجزارين والرحويين، فحين اهتم البسكريون بنظافة الشوارع، أما البقية من القبائل فقد اشتغلوا كبنائين وخياطين، وخدم في البيوت، رعاة، وعمال غير ماهرين[4]. يتحملون الوظائف الصعبة.

سكان الأرياف

يمثلون الأغلبية الساحقة من مجموع سكان الجزائر حيث قدر حمدان خوجة عدد سكان الجزائر بحوالي عشرة ملايين نسمة، يتوزع أغلبهم خارج المدن في القرى والأرياف.وينقسمون على سكان السهول وهم العرب الأصليين من المشرق، وينحدرون من قبائل عربية مختلفة، أما سكان الجبال والأماكن الوعرة فهم سكان البربر الأصليين أو البرابرة، ويختلفون عن العرب في لغتهم ويعيشون بطريقة بسيطة ولا يعرفون أي نوع من الامتيازات الاجتماعية[5].

ويمكن تقسيمهم وتصنيفهم حسب علاقاتهم مع السلطة الحاكمة وعلاقتهم بعضهم البعض وطريقة حياتهم إلى:

-سكان متعاونون (قبائل المخزن)
-سكان خاضعين (قبائل الرعية)
-سكان متحالفون (الأحلاف)

([1]) - صالح عباد: مرجع سبق ذكره، ص 359

([2])- سعيدوني والهدي : مرجع سبق ذكره، ص 99

([3])- آرزقي وشويتام: مرجع سبق ذكره، ص 56

([4]) - وليام سبنسر: مصدر سبق ذكره، ص 100.

([5])- حمدان بن عثمان خوجة، مصدر سبق ذكره، ص(13-15)

-سكان ممتنعون في المناطق النائية والجبلية[1].

النوع الأول من القبائل قبائل المخزن: هي قبائل متحالفة مع السلطة التركية بالبلاد، وكانت لها جملة من الامتيازات كانتفاعها من أراضي البيلك، إعفائها من الرسوم والضرائب، واستفادتها من الغنائم في مشاركتها بالحملات مع الانكشارية، وكان تقوم بحفظ الأمن والاستقرار ومنع التمرد والمشاركة في تحصيل الضرائب، وكانت تتواجد بمختلف مناطق الايالة وموزعة على البيالكات الثلاثة[2].

النوع الثاني هي قبائل الرعية أو القبائل الخاضعة مباشرة إلى البيلك المتواجدة فيها، وكانت مجبرة على دفع الضرائب والرسوم التي عليها لكون المحلات تمر عليها وهي تحت حراسة فرسان المخزن، ولم تتمتع بأي امتيازات مع السلطة، وقد تعرضت للاستغلال والتعسف والاضطهاد، ومنعت من التواصل مع القبائل المعادية للسلطة[3].

النوع الثالث هي قبائل الأحلاف والتي كان يتم التعامل معها عن طريق مرابطها الذين احتلوا مكانة طيبة عند الأتراك واعتمد سيطرتها على الجانب الروحي و الديني أو الطابع الحربي لهم، وقد استعان بهم الأتراك بطريقة غير مباشرة كوسيط بينهم وبين الأهالي لفرض سيطرتهم على المناطق غير الخاضعة لهم، وذلك لتضمن سلامة تنقلها، وسلامة أموالها وبضائعها، وأمن البلاد ومنعها من التمرد[4].

النوع الرابع والأخير هي قبائل الممتنعة عن الخضوع للسلطة التركية، مكنتها جغرافية منطقتها من الاحتفاظ باستقلالها الذاتي، فهي تعيش في المناطق الجبلية الصحراوية الصعبة، وكان تحت حكم مشايخهم وقد ابتع الأتراك جملة من الوسائل لمحاولة التحكم فيهم، ....الأسواق الموسمية والأسبوعية أو الهجوم عليها حيث تزداد قوتها وشدتها، وتنصب الحاميات وإقرار عشائر المخزن في الأماكن المهمة

وعلى العموم فإننا أشرنا سابقا أن المجتمع الجزائري كان هرميا تأتي جماعة الأتراك عل قمته لسيطرتها على الحكم، ثم يليها الكراغلة الذين استطاعوا الظفر بنسبة من الحكم والمشاركة في الحياة السياسية، ثم يأتي سكان الحضر الذي عرف تنوع وامتزاجا عرقيا لاستقراره بالمدن ومزاولته لأنشطة اقتصادية حرفية ومهنية وتجارية، أما سكان الريف فقد حافظوا على بساطتهم وتشكيلتهم الاجتماعية وعاشوا حياتهم بشكل تقليدي ولم يؤثر عليهم سوى طبيعة علاقتهم مع السلطة الحاكمة، وكانوا يزاولون أنشطة رعوية وفلاحيه.ويمكن القول أيضا أن هذا التمازج السكاني في المجتمع الجزائري كان في زمن تواجد الأتراك بالجزائر وليس قبله، ونضيف أن هنالك إنسجام بين هذه الفئات الاجتماعية فلكل دورها

([1])- سعيدوني والمهدي، مرجع سبق ذكره، ص 105.

([2])- صالح عباد، مرجع سبق ذكره، ص 366.

([3])_ سعيدوني والمهدي، نفسه، ص 107.

([4]) - نفسه، ص 108

ومهامها في المجتمع، ولعلى أكبر دليل على أن الأتراك وغيرهم انسجموا في البلاد هي المدة الزمنية التي ظلوا فيها يعيشون في أرض واحدة مدة ثلاث قرون[1].

لا يمكن أن نستوفي الجانب الاجتماعي دون الحديث عن الخصائص والمميزات التي يتمتع بها هذا المجتمع الذي خلافا عن تشكيلته البنيوية المتعددة الأجناس نجد أنه لها عادات وتقاليد تميز عن كل هذه الفئات، غير أن الواقع التاريخي يؤكد أن الإنسان يتأثر بالواقع والبيئة المحيطة به، فمظاهر وصفات ونشاطات سكان المدن ليست كسكان الأرياف وتأثرهم بالأجناس الأخرى قد لا ينطبع على سكان الأرياف على عكس سكان المدن. وفضلنا تناول العادات وتقاليد المجتمع من جانبين الجانب الشكلي نتطرق فيه للحديث عن اللباس والمسكن، الصفات والطعام، كما نذهب إلى وضع المرأة في ظل هذا المجتمع دورها في المستويين المدني والريفي إضافة إلى الحديث عن الجانب الثاني وهو عن العقيدة واللغة.

إذا أردنا أن نصف المجتمع الجزائري المدني فقد تكون العاصمة أحسن مكان لوصفها ذلك أنها سوف تعطينا صورة جيدة للمجتمع في عهد الأتراك وتبرز مظاهره ودرجات تأثره.

مجتمع المدن:

سكان المدن كما أشرنا خليط متجانس من العرقيات، في العهد العثماني بالايالة وأشرنا إلى وجود أكثر من عرق.شكل الأهالي الجزائريون درجة متوسطة في سلم أو هرم السكاني، فهم يعتبرون الأغلبية بحكم أنهم سكان المدينة الأصليين قبل تواجد الأتراك بها وبعدها. ويتصف سكان مدينة الجزائر بصفات خاصة وأخرى عامة، فهو شجعان وأوفياء للعهود كرماء وبسطاء ونظيفين في منازلهم اجتماعيون وصنا عيون، تجار لا يعرفون السرقة أو الخيانة وهم رجال شرف لا يخذلون أبدا من عهودهم، ومن حيث

التكوين الجسدي، فأجسامهم رشيقة، ونتيجة للاختلاط بينهم وبين الأندلسيين والأتراك فإنهم لم يعرفوا الأمراض التشوهية أو المزمنة مثل النقرس وغيره وأهم ميزة طبعتهم أنهم كانوا مسالمين يخضعون للسلطة حتى ولو جارت[2].

وقد لاحظنا في دراسة حمدان ووليام سبنسر حول عادات المجتمع الجزائري ووصفهم إياه أن تعدد الأجناس جعل هذا المجتمع يتأثر بالوافدين إليه، حيث تحدث وليام على أن العنصر العثماني أثر على المجتمع الجزائري في عدة نقاط: اللباس، والتقاليد البنائية والموسيقى وبقية الأنواع المماثلة، فقد قلد الجزائريون فيها المجتمع القسطنطيني وذلك ناتج عن كون الجزائر تعتبر مركز ثقافي عثماني في غرب المتوسط.

([1])- سعيدوني والمهدي، نفسه، ص(108-109).

([2])- عثمان بن حمدان خوجة، مصدر سبق ذكره، ص (63، 64، 65، 67).

ولقد لبس الجزائريون على غرار الأتراك باستثناء اليهود لباسا بسيطا قميصا من الكتان وسراويل على طول الركبة مطبقة وفي الشتاء يلبسون الغليلة، وهي لباس طويل حتى الركبة تأتي بحدها الدرة وهي جبة طويلة من القماش الرفيع، ويكمل هذه المجموعة البرنوس[1].أما الاطفال فيقول حمدان خوجة أنهم كانوا عراة تماما إلا في فصل الشتاء وحين يبلغون، وكما لبس الجزائريون لباسا على رأسهم يدعى بقلنسوة[2].فحين لبس الأتراك قفاطين في لون عميق أحمر أو أزرق فخمة ومزركشة تدل على فخامتهم وأناقتهم وتطورت مع الوقت لتناسب العصر من حمل للأسلحة والبنادق وكان تستخدم جل الألوان في ألبستهم باستثناء اللون الأسود الذي كان خاصا بلباس اليهود[3].

بالنسبة للطعام فقد كان الكسكي هو الطبق التقليدي للايالة، ومع قدوم الأتراك أضيفت أطباق أخرى: كالكباب، والدولما، وهو طبق محبوب عند الجزائريين لأنهم يقومون بحشوه بمختلف الأنواع.

وأما مساكنهم فهي حسنة البناء ومنتظمة وبنائها جيد، ويجب أن تكون الأجزاء الداخلية من المنزل منفصلة عن بعضها، وذلك حتى تظل النساء في معزل.وينفتح المدخل على فناء مربع مبلط يقع من الرخام، محاط بصف أو صفين من الأروقة، أما الغرف فهي مستطيلة، تزينها المنمنمات المحفورة على الجبس وصور لأوراق الأشجار، ولا يدخلها الضوء إلا من الساحة، أما النوافذ فهي ضيقة وصغيرة ولا يمكن الرؤية عبرها لأنها تطل على الشارع[4]. ويوجد في المدينة حوالي 5000 دار مبنية على شاكلة واحدة ويدعى طابقها العلي، حيث يكون باب الدار مفتوح على الردهة تدعى السقيفة، وهو مكان لتبادل أطراف للحديث بين الجيران، وبعدها يوجد باب آخر يقود إلى وسط الدار الذي يكون مربع الشكل وبعدها يبدأ تقسيمه بين الغرف كما ذكرنا سابق.

وشكل الجزائر يبدوا على شاكلة هرم، ديارها مبنية بعضها فوق بعض بحيث أن البحر يرى من كافة السطوح البيوت.وسقف الديار من الآجر وتطلى الجدران بالجير مرة كل سنة، وأسفل الدار مبنية بالحجارة [5] ولون الجير الأبيض هو ما أكسبها باسم الجزائر البيضاء.

أما المرأة الجزائرية فقد لعبت دورا ثانويا في مجتمع بالأساس ذكوري، فهن كن قعيدات البيوت مطبقات للوجود الإجتماعي بالإسلام، وقعيدات الكانون التي تدافع عنهن الأسلحة والسفن الحربية الجزائرية، وكن مقسمات في لباسهن حسب المكانة والتواجد، حيث أن نساء المدن كن أكثر أناقة، ومتأثرات باللباس التركي لنساء القسطنطينية "... يلبسن لباس ذو حزام مفتوح عند الصدر مع معطف أو

([1])- وليام سبنسر، مصدر سبق ذكره، ص(102، 103، 105).

([2])- حمدان بن عثمان خوجة، مصدر سبق ذكره، ص 24.

([3])- وليم سبنسر، مصدر سبق ذكره، ص 113.

([4])- ج.آو.هابنسترايت، مصدر سبق ذكره، ص 37

([5])- أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا، ص(183-184)

أكثر بأكمام قصيرة مع أو إلى جانب ألبسة داخلية تتدلى على سراويل مطلوقة عندما يكن بالمنزل " ... أما خارجا فإنهن يضفن ثوبا مزركش من ثلاث طبقات طوله يصل إلى الركبة، ويتحزمن بشاش مزركش عريض ثم تأتي سراويل عريضة، فوق الكل يأتي الحايك الأبيض، ويتحجبن حتى عيونهن بقطعة قماش شفافة بيضاء[1].

وكن شديدات الإهتمام بجمالهن، فلقد كان الشعر الذي يمثل الظاهرة الأساسية بقدر جماله أكثر عندما يطول ويتم الاهتمام به بشكل لائق، كما لعبت العطور والروائح والأطرزة المزركشة دورا أساسيا لا تستغني عنها سيدات الجزائر[2].ويعتبر الذهاب إلى الحمام من العادات التقليدية للمجتمع النسائي في الايالة الجزائرية وهذا الحدث ليس لأجل النظافة والاستحمام فقط، بل فرصة لعرض المكانة الاجتماعية والتباهي بالملابس والمجوهرات واستعراض ثروات العائلة.

وكما اعتبر الحجاب من العادات التي تميز المظهر الخارجي لنسوة الجزائر فقد أصب لباسا خارجيا ضروريا خاصة في السنوات الأخيرة من العهد العثماني وكان على نوعين، الحايك أما النوع الثاني فيضاف إلى الحايك قطعة مزركشة تتم خياطتها ملتصقة به.

أما أعمالهن وحرفهن اليومية، التطريز والأشغال الأخرى من عمل الإبرة والتي كانت تمثل النشاطات الأساسية لنساء مدينة الجزائر مثل القطع الخاصة بالنوافذ وألبسة الرأس والمحارم اليدوية والقفطانات و الأدوات الأخرى الخاصة بملابس الرجال والنساء.وقد لوحظ أن الطراز الجزائري قد تأثر

بالتطريز العثماني حيث كان الرمز المستعمل هو التفاح البندوري والقرنون وهما من تقاليد المنسوجات التركية[3].

ظاهرة الحمامات والذهاب إليها كان يعتبر تقليد أسبوعي للمجتمع الجزائري ليس فقط للتطهير وإنما مكان لمناقشة أغراض اجتماعية أخرى منها لزواج فقد يتم الاتفاق عليه أو المبادرات الأولى عليه، والتحدث عن مراسيم الدفن وتحل فيه بعض المسائل التجارية ويتفق عليها وهو مركزا لتبادل الأخبار العائلية[4].وهذا الدور الذي لعبته الحمامات كان راجعا إلى انتشارها حيث بلغ عددها 60 حماما في بدايات

([1])- وليام سبنسر، مصدر سبق ذكره، ص 106.

([3])- نفسه، ص 107.

([3])- وليام، مصدر سبق ذكره، ص 108-109

([4])- نفسه، ص 110

العهد العثماني وكانت بناياتها واسعة، ونظيفة ومضاءة من السقف ومجهزة بالماء البارد والساخن، وفي داخلها أرائك وطعام وعمال بالإضافة إلى والعطور التي تحتل المكان برمته[1]

وكما أشرنا فإن الزواج من القضايا التي كانت تناقش في الحمامات وعرف الزواج في المدينة كان له مبادئ الخاصة حيث يأخذ بعين الاعتبار جملة من الأمور منها أصالة العائلة، سلوكها الاجتماعي العرف والتقاليد، الاقتصاديات والارتباط في غالبه مبني على العصبة القبلية[2]. وكان عرف الزواج يتم بواسطة الظاهرة المتمثلة في الوساطة والتي كانت شائعة كثيرا، حيث كانت تتم عن طريق امرأة صديقة للعائلتين، فتنقل المعلومات للآباء الراغبين في تزويج أبنائهم، وتقدم أيضا المعلومات الاقتصادية المتعلقة بأصهارهم المحتملين في المستقبل.

وأما حفلات الزواج فتختلف حسب الظروف المالية أو المكانة الاجتماعية وأيضا حسب المكان فأعراس الريف أكثر بساطة من أعراس المدينة إلا أن أعراس القبائل مثلا كان بسيطة جدا عرسان مع حضور الشهود لإعلانه أما أعراس المدينة فتدوم سبعة أيام خاصة لدى الطبقة البرجوازية تستعرض فيها كل مكارمها لأبنائها، وتفاخر بمجوهرات العروس، وفيها يبذل جهد لنيل اعجاب الطرفين خاصة من طرف الرجل يدلل الزوجة بأنواع من الحلي و الأزياء والمجوهرات وتكون هذه الحفلات بحضور بالأصدقاء ومصحوبة بقرع الطبول والمزامير[3].

المجتمع الريفي:

أما خراج المدن فقد كانت التأثيرات التركية أقل، فقد حافظت القبائل على لباسها البسيط، منذ قرون متمثلا في لباس من الصوف أبيض يتراوح بين خمسة إلى ستة أقدام عرضه تسعة أقدام واختلفت تسميته بين الحايك والقندورة وهو يغطي الجسم ويحيط به ويتحزم عليه بحبل ويغطيه البرنوس ولبس زعماء القبائل والشيوخ والأعضاء الرسميون والعلماء المعينون من طرف الأتراك كعلامة مميزة لهم كعامة صغيرة، وهي قطعة قماش من الصوف تزينها الصور والرموز ويشير عدد القطع منها وترتيبها إلى رتبة وشغل لابسها[4].

انقسم سكان الريف بين البدو والرحل والمستقرين، فأما المستقرين منهم فهم يقطنون البيوت المصنوعة من الطين والحجارة مغطاة بالديس والحجارة وأوراق الأشجار وفي القرى الكبيرة يكون سقفها مغطاة بالقرميد وجل أوانيهم من الطين والخشب ولا يملكون الكثير منها وتشبه القرى الكبيرة

([1])- نفسه، ص 144.

([2])- نفسه، ص 116

([3]) - نفسه، ص(117-118).

([4])- وليام سبنسر، مصدر سبق ذكره، ص 105

والآهلة بالسكان نمط المدن في البناء والمهن تقريبا[1].وهم شعب أبيض ذو قامة معتدلة وبنية جسدية قوية نشطون يتسمون بحيوية وأدب في المعاملة وذو مزاج رائق يمتهنون الزراعة والصناعة وهم شعوب يقاوم دائم ولا يحب الخضوع ولم يتمكن من السيطرة عليه قط[2].

وأما الرحل منهم يعيشون في السهول ويمتهنون الفلاحة ومساكنهم من الخيام المصنوعة من الوبر لونها أحمر أو غيره، شكلها مكور، تثبت بواسطة أوتاد وتقاس ثروتهم على حسب اتساعها أما أدواتهم وأوانيهم فتوضع فوق الحجارة وأغلبها مصنوعة من الطين والخشب، ويربون حيوانات مختلفة كالدجاج و الحمير والمواشي، وتجد رجالهم لا يستغنون عن الأسلحة ويعبر وجودها عن مكانة وتقدير للرجل[3].ويتناولون القمح والشعير وحده، ويفطرون بخبز الشعير والزبدة ولا يأكلون اللحم إلا في المناسبات، ويحصلون على بضاعتهم وحاجياتهم من الأسواق الأسبوعية حيث يستبدلون فيها العسل والصوف بالمواد الغذائية كالزيتون و التين ...الخ ورغم إمتلاكهم للمواشي فإنهم لا يذبحونها إلا للضيافة وطبقهم المفضل هو الكسكسي بالحليب.

وبالنسبة لسكان الصحراء فهم كثيرو التنقل كل شهر تقريبا عكس سكان السهول الذين يتنقلون حسب حاجيات أنعامهم، غذائهم التمر وحليب النوق ويستبدلون منتجاتهم مقابل الشعير والقمح، لديهم أجود أنواع الصوف وحيواناتهم النوق والجمل والخيول ولا يربون الماشية الصغيرة منها لأنها تعيقهم في الهروب[4].

أما الجانب العقائدي واللغوي:

فأردنا أن نشير فيه إلى اللغة والعقيدة الموجودة بالبلاد مع تنوع تركيبتها الاجتماعية، فالإسلام كما هو معروف ديانة المغرب العربي، وباعتبار الإيالة الجزائرية جزء من المنطقة، فإن الديانة الإسلامية هي

([1]) - حمدان بن عثمان خوجة ، مصدر سبق ذكره، ص(27-28-29).

([2]) - وليام شارل، مذكرات وليام شارل قنصل أمريكا بالجزائر، تعريب تعليق وتقديم إسماعيل العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1972، ص (113-114-115).

([3]) - حمدان بن عثمان خوجة ، مصدر سبق ذكره، ص 38.

([4]) - نفسه، ص 38.

التي كانت شائعة في البلاد، وقد ذكر وليام شارل ذلك فقال " الإسلام هو الدين الوحيد الذي يدين به الجزائريون ولا يوجد في البلد دين آخر، ما عدا اليهودية المسموح بممارستها لليهودي"[1].

ومن الملاحظ أن التركيبة الاجتماعية التي تزعمتها الفئة التركية أضفت نوع من المذاهب يمكن القول أنه جديد على البلاد، ذلك أن المالكية هي المذهب العالم لسكان البلاد ثم أضيف المذهب الحنفي، كمذهب رسمي للإيالة مع تولي الأتراك الحكم والسلطة في البلاد، وبذلك فرض نظامان قضائيان على البلاد على حسب المذهب كما أشار إليه حمدان خوجة في كتابه المرآة[2].وبالعموم فقد أحترم الأتراك الأهالي وتركوهم على مذهبهم حتى مع وجود مذاهب أخرى، كمذهب الإباضية في الصحراء الجزائرية، إذ أن أهل ميزاب كانوا على الاباضية وأعطى لهم الأتراك حرية مطلقة وشكلت عندهم أمانة تتولى شؤونهم الدينية والدنيوية خاصة فيما يتعلق بالتقاضي، وحتى انطبعت هذه الحرية لدى اليهود وقضاتهم[3].هذا عن الجانب العقائدي أو الملة المتبعة بالإيالة الجزائرية العثمانية.

أما اللغة فإنها كانت متنوعة إذ يذكر وليام شارل أن لغات الحديث عديدة منها العربية لغة الأهالي، والتركية للأتراك، والعبرية لليهود بالإضافة إلى لغات القبائل ولهجاتهم المختلفة كالشاوية أو اللغات التي يتحدث بها سكان الجبال المستقلون. ومع هذا التنوع فإن اللغة التركية هي اللغة الرسمية ولغة الإدارة رغم أن اللغة العربية هي لغة أغلب السكان وهم الأهالي واحتلت اللغة الفرنسية دوائر الأعمال ومراكز الوكلاء الأجانب الذين يقيمون بالبلاد[4].

ونتيجة للتنوع العرقي فإنه كان لابد من وجود لغة التحادث بين فئات المجتمع المختلفة قال عنها وليام شارل: الفرنكية هي خليط من الاسبانية والفرنسية والايطالية والعربية، وهي واسعة الاتصال بين الأجانب والأهالي[5]. وهي نفسها التي قال عنها وليام سبنسر أنها تدعى Franco أو sabir وهي نتاج قدوم الأسر والمرتزقة الأوربيين والأندلسيين وهذه اللغة كانت واسطة الاتصال في مدينة الجزائر أما سواها من المدن فإن العربية العامية هي المسيطرة[6].

الأوضاع الاقتصادية: عرف النشاط الاقتصادي في الجزائر في العهد العثماني تطورا ملحوظا وتنوعا في ميادينه من حيث تعددت منتجاته الزراعية والحرف الصناعية واليدوية والمبادلات التجارية التي إكتسحت بها الأسواق الأوربية.

([1])- وليام شارل، مصدر سبق ذكره، ص 39

([2])- حمدان خوجة، مصدر سبق ذكره، ص 72.

([3]) _ وليم سبنسر، مصدر سبق ذكره، ص 100

([4])- وليام شارل: مصدر سبق ذكره، ص 39.

([5])- نفسه، ص 39

([6])- وليم سبنسر: مصدر سبق ذكره، ص 102.

وشهد النشاط الاقتصادي بالبلاد فترات إزهار وتقدم وأخرى تراجعت فيها وتقهقرت متأثرة بجملة من العوامل خاصة منها الاجتماعية وكثيرا ما تعرضت البلاد للمجاعات نتيجة فترات الجفاف الدورية وغالبا ما كان الجفاف مصحوبا بغزو الجراد وانتشار الأوبئة وإتلاف المزروعات والإتيان على الماشية بالإضافة إلى قساوة الطبيعة والمناخ و بدائية وسائل الفلاحة[1]ونشير هنا أن مدينة الجزائر عاصمة البلاد كانت تتوفر في الربع الأول من القرن 17م على نحو 300 تاجر و 1200 خياط و600 مربي لدود الحرير و200 نساج و 180 سكاكا و 86 حدادا وعدد آخر من الصناع وهذا على غرار مدن أخرى اختصت حسب مواقعها في التجارة أو الزراعة أو الصناعة[2].

استمرت حالة الاستقرار الاقتصادي إلى غاية المنتصف الثاني من القرن 17م والنصف الأول من القرن 18م ولم تعرف الايالة في هذه الفترة أي تقدم ملحوظ في تطوير اقتصادها، أما المرحلة الأخيرة من العهد العثماني فقد استمر في هذا الاستقرار إلى غاية الثلاثين سنة الأخيرة من العهد العثماني أو ما بعد هذه الفترة عرفت المدن الجزائرية انحطاطا اجتماعيا واقتصاديا حيث افتقرت المدن وتخربت القرى نتيجة الأوضاع السائدة[3].وبالعموم فإن الأنشطة الاقتصادية التي عرفتها البلاد هي:

الفلاحة:

تعتبر الزراعة أهم نشاط امتهنه الجزائريون على العموم خصوصا أن أغلبيتهم يعيشون في القرى والأرياف حسب ما أورده حمدان خوجة وما تجدر الإشارة إليه أن الأراضي كانت منقسمة إلى أنواع حسب ملكيتها فتجد بذلك الملكيات الخاصة وهي التي يمتلكها أصحابها ويشغلونها مباشرة وملكيات الدولة أو أراضي البيلك وتعود إلى الدولة وحق التصرف فيها، وهناك الأراضي المتاحة والتي تعود

إلى أفراد القبائل والعشائر واستغلالها بشكل جماعي، وهناك أراضي الوقف وهي معروفة أسبابها وتعود إلى المنفعة العامة[4].

وهذا وقد تنوعت المحاصيل الزراعية بالايالة، حيث كانت تنتج الحبوب والتي كانت المورد الأساسي للسكان، وكانوا قلما يزرعون أية حبوب باستثناء الحنطة والشعير، وتميز القمح الجزائري من النوع الصلب والدقيق بجودته فهو مشهور بالأسواق الايطالية، ويستخدم على غرار صنع الخبز في صنع

([1])_ صالح عباد: مرجع سبق ذكره، ص 335

([2]) _سعيدوني والمهدي: مرجع سبق ذكره، ص 49

([3]) _نصر الدين سعيدوني:مرجع سبق ذكره، ص 50-51

([4])_ نصر الدين سعيدوني:مرجع سبق ذكره، ص (53,52,51)

المعجنات باختلافها[1].ونظرا لأهمية هذه المادة، لكونها مادة أولية في الاستهلاك المحلي وللتصدير الخارجي، فقد عملت الدولة جاهدة للسيطرة عليها والمساحات المخصصة لها في مختلف جهات الوطن وبذلك تحقق لها إنتاج ضخم كان موجها للاستهلاك من طرف الفلاحين وسكان المدن وحصة لتصدير إلى الخارج[2].

وكذلك توفرت في الايالة منتوجات الأشجار المثمرة حيث توفرت جميع الفواكه المتمركزة بالمناطق المعتدلة، كالتين والرمان والعنب بالإضافة إلى أجود أنواع الخضراوات[3]. وهناك المزروعات ذات الطابع التجاري القطن والكتان والأرز والتبغ ويضاف إليها إنتاج العسل والتي اشتهرت بها الجهات الشرقية والأقاليم الجبلية ببيلك الغرب.وبالنظر إلى الإمكانيات والغطاء النباتي الذي يغطي الغابات الجزائرية فقد استغلت في صناعات متعددة، كالمساكن وأثاث الطهي والتدفئة وأهم صناعة هي بناء السفن والذي بموجب تعرضت الغابات الجزائرية إلى القطع[4].وقد أزيل قسم كبير من الغابات في أوائل القرن 19م نتيجة انتشار الحياة الرعوية والإستغلال المفرط لبناء السفن حيث أصبحت مهنة الرعي وتربية المواشي حرفة مكملة لزراعات أراضي العرش ،ورغم هذا التنوع الذي شهدته الزراعة وانتشارها في المدن حيث كانت كل منطقة تختص بإنتاج نوع من المحاصيل حسب ظروفها الطبيعية والمناخية، فالحبوب في منطقة وهران ومجانة ونواحي غريس وقسنطينة، وزراعة الأشجار المنتشرة بالمناطق الجبلية بالايالة، وبمنطقة القبائل وطراوة، وبخصوص المدن التي انتشرت بها البساتين كان أكبرها مدينة الجزائر، ورغم ذلك فإن الزراعة واجهت مشاكل وصعوبات تعود إلى بدائية الوسائل الفلاحية وعدم معرفة الفلاحين بأساليب وتقنيات الاستصلاح ووسائل الري والتعامل مع المستنقعات

وهو ما جعل استغلال أخصب سهل بالبلاد "متيجة" يواجه صعوبة لدى الفلاحين بسبب انتشار المستنقعات وأمراضها[5].هذا فيما يخص الفلاحة

الصناعة:

([1]) _ وليام شارل، مصدر سبق ذكره، ص(29-30)

([2])- سعيدوني والمهدي، مرجع سبق ذكره، ص 58.

([3])- وليام شارل، مصدر سبق ذكره، ص 30.

([4])- سعيدوني والمهدي، مرجع سبق ذكره، ص 59

([5])- نصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر بالفترة العثمانية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979، ص 31-32-33.

لقد ظل النشاط الصناعي متواضعا وبسيطا بالايالة الجزائرية "لا يتعدى بعض الصناعات المحلية واليدوية وبعض الصناعات المعدنية التحويلية البسيطة"[1].ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الأخيرة قد تنظمت بشكل دقيق، فقد خصص لكل حرفة أو مهنة نقيب أو أمين، وتخضع لسلطته كل حرفة ويتولى شؤون المهن[2].وكانت لكل منطقة صناعتها الخاصة والإنتاج يقسم بين المستهلك والموجه للتصدير والصناعة التقليدية في البلاد كانت تستمد مادتها الأولية من الإنتاج الزراعي والحيواني، فتصدرت بذلك صناعات النسيج الطليعة فظهرت لنا المدن والقرى التي اهتمت بصناعات الزرابي والحايك والبرانس غير أن أجود الزرابي كانت بمنطقة بني راشد، واشتهرت قسنطينة بالحياك[3]. وحسب ما أورده شارل وليام فإن التطريز الجزائري فاق وبقوة المنتوجات الأوربية أما صناعات البرامل والحدادة والأحذية فقد بقيت على طابعها وصناعات الساعات يهتم بها الأجانب حسب ما أورده هذا الأخير قائمة بأهم الصناعات في البلاد فكانت صناعات الحرير والصوف والجلود، والتي تصنع منها ملابس وأحذية وحزامات وعمامات توجه إلى الاستهلاك المحلي[4].

وهناك صناعة دباغة الجلود لصناعة الأحذية والسروج وغيرها، واختصت مدينة الجزائر وتلمسان وقسنطينة بصناعة الحلي الذهبية غير أن هذه الصناعات كانت تحت أيدي اليهود، واشتهرت جبال جرجرة بصناعة الحلي الفضية، وقد لا يكفي المقام لتفصيل أنشطة المدن، غير أن الصناعات المعروفة في ذلك العهد مورست من قبل المجتمع الجزائري كصناعة الفخار والحدادة النجارة والأسلحة والبارود والأدوات الزراعية وبناء السفن وسك النقود والتي كانت متفاوتة من منطقة لأخرى والملاحظ عن ما نقل المؤرخون أن الصناعة الجزائرية احتفظت بنفس الخصوصية فلم تقم صناعات حقيقية والسبب في نظرهم يعود إلى جملة من الأسباب كان أهمها: المنافسة الأجنبية خاصة في العهد الأخير من عمر الايالة وفتح باب الاستيراد والإكثار من الضرائب وتحكم النقابات المهنية[5]. ولا ننسى أن الموارد الأولية لهذه الصناعات كانت تعتمد على الموارد الفلاحية، والتي حين نقصت مواردها أثرت على الصناع المحليين الذين عجزوا عن الإتيان بالموارد الأولية، وبالتالي آثر بشكل سلبي على الجانب الصناعي الذي تأثر بقوة القطاع الفلاحي.

التجارة : يمكن أن نقسم التجارة الجزائرية إلى نوعين: التجارة الدولية والتجارة الخارجية:

([1])- نفسه، ص 34.

([2])- وليم شارل: مصدر سبق ذكره، ص 93.

([3])- آرزقي شويتام: نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره من الجزائر، دار الكتاب العربي، ط1، 2011، ص 62.

([4])- وليام شارل:مصدر سبق ذكره، ص 93.

([5])- نصر الدين سعيدوني: النظام المالي...، ص 37

فالاستكمال دعائم الاقتصاد القوي مارس الجزائريون النشاط التجاري بشكل واسع، وكانت الأعداد الهائلة من المحلات التجارية والأسواق التي كانت منتشرة عبر المدن الساحلية والداخلية دليل على توسع هذا النشاط[1]. وأشهر المدن أو المراكز التجارية مدن الجزائر وقسنطينة وتلمسان، وفي مدينة الجزائر تنوعت الأسواق حسب اختصاصاتها فهناك على سبيل المثال: سوق الشمع، سوق الكتان، سوق الصباغين... الخ وبجوار هذه الأسواق تنتشر المرافق العامة خاصة منها الموجهة للرفاهية والعناية كالفنادق والحمامات واحتوت مدينة قسنطينة على موقع هام لارتباط تجارتها بالقوافل الصحراوية التي تصدر إليها منتوجاتها النسيجية والمحلية ونستورد منها الأقمشة الحريرية والخيوط الذهبية، والعقاقير والأدوية ..الخ ونفس الشيء حازت عليه تلمسان في مبادلاتها مع تجارة المغرب الأقصى والجهات الغربية من البلاد وخاصة صلاتها ببلاد السودان ومالها من كنوز وموارد فخمة، ويضاف إلى هذه المراكز بعض الواحات الصحراوية الواقعة على طرق القوافل التجارية القادمة من السودان[2].

أما التجارة الخارجية، فكانت متعددة الجهات فهناك تجارة مع المغرب الأقصى وتونس وبقية الدول العثمانية بالمشرق والتي كانت قائمة على تلبية الكماليات والحاجيات الترفيهية وكانت هذه التجارة متصلة بالأكثر بموسم الحج والتي كانت تذر أرباحا طائلة[3]. وهنا تجارة من جهة الجنوب القائمة مع بلاد السودان وصفها المؤرخون الأوربيون بالجمود، لغياب الازدهار وعنصر العملة والوسائل الائتمانية ولضعفها أيضا[4] ولعلى أهم تجارة : كانت مع الدول الأوربية وبالخصوص دولة فرنسا حيث تصدر الموارد الأولية كالصوف والجلود والشمع والزيتون والحبوب مقابل استيراد المواد الترفيهية كالعطور والمصبرات من فرنسا، والزليج من ايطاليا والعتاد الحربي من اسكندنافيا ومن انجلترا تأتي السكر والقهوة ...الخ[5].

3- مميزات وخصائص النشاط العلمي والفكري –حواضر المغرب الأوسط:

([1])- آرزقي شويتام: نهاية العهد العثماني، ص 63.

([2])- نفسه، ص 64.

([3])- سعيدوني والمهدي: مرجع سبق ذكره، ص 71-72.

([4])- صالح عباد : مرجع سبق ذكره: ص 340.

([5])- سعيدوني: النظام المالي...، ص 40.

عرف أحد العلماء الثقافة على أنها كل ما يتناوله الفكر الإسلامي وإذا تحدثنا عن الثقافة في العهد العثماني يقول المهدي بوعبدلي على أن الثقافة والتوجيه كانت بذلك المدلول تدل على " التعليم بجميع أنواعه وفنونه ومراحله وكله يرجع إلى تكملة وتمتين للعقيدة الروحية الإسلامية"[1]. وذلك راجع إلى أن الثقافة كانت مرتكزة على الحياة الدينية (تفسير، حديث، فقه، عقائد) [2].

والعهد العثماني بالجزائر كما أشرنا سابقا إلى مميزاته السياسية وتدريجاته التاريخية بالإضافة إلى أحواله الاجتماعية يكشف لنا أسباب هذا الانحصار إن صح التعبير في مدلول الثقافة فالعلوم أو الحياة الدينية نعم قد طغت طيلة هذا العد لكن لا ينفي وجود العلوم النقلية والآداب وغيرها من علوم المنطق إلى آخره، ودليل ذلك جملة العلماء لم تكن محصورة في ميدان واحد أو مجال ديني فقط بل هناك من كتب بالطب والفلك والمنطق والقضاء...الخ من قضايا العصر آنذاك.

شاعت كثيرا فكرة اتهام العهد العثماني بالجزائر بالجمود والخمول وانطوائه عن التشجيع العلمي والقيام بما يلزم له، نعم قد يكون العهد العثماني عسكريا أكثر منه ثقافيا، إلا أن الواقع الذي عاشت فيه البلاد أجبرها على الاهتمام بالسياسة والحرب أكثر منها للتوجه إلى العلم ومجالس الشعراء والآداب اللغوية ...الخ ذلك أنه لم تسلم أي فترة من فترات الحكم العثماني بالبلاد من الهجمات والحروب الخارجية والداخلية، وكثرة المآمرات على جهادها البحري ومحاولة إسقاطه[3].فانا لدولة تحارب برا وبحرا أن تجلس لتسمع مجالس الشعراء، ومناظرة العلماء رغم أهميتها فالأجدر آنذاك كان حماية البلاد ولولا دفاعهم المستميت برا وبحرا لعدت هذه البلاد بلاد كفر، ولا يكفي المرء سوى أن يتذكر بداية هذا العهد ليعرف صدق الحدث.

ثم إن تردي أوضاع الجزائر الثقافية والعلمية، لم تكن وليدة العهد العثماني بل كانت حالة موروثة من عهد آخر الملوك الزيانيين والحفصيين، فهما كانا معا في وسط بين الاضطراب والصراع القائم بين الدولتين المذكورتين[4]. فتدهورت الثقافة الجزائرية كان على نفس خطى الثقافة الإسلامية، كما يؤكد ذلك سعد الله إذ يقول :" ..قد بدأ قبل استيلاء العثماني على السلطة بقرون... وتكاد المصادر تجمع على أن

([1])- المهدي بوعبدلي: جوانب من الحياة الثقافية في الجزائر في العهد العثماني، ج1، جمع عبد الرحمن دويب، الجزائر، عالم المعرفة، 2012، ص163

([2])- سعيدوني: ورقات جزائرية، ص 137.

([3])- أنظر أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا، حدث يذكر في كل فترة الحروب والغزوات التي كانت على البلاد.

([4])- أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا، ص 11

الثقافة الإسلامية قد أخذت بالتدهور منذ عهد المعتصم"[1].وبذلك فإن الأتراك لم يأتوا إلى البلاد بدعوى الحضارة كما ادعت الدول الأوربية التي عمل مؤرخيها جاهدين إلى وصف ذلك العهد بأقبح الصفات، فهي جاءت حامية بعد أن عجزت جل الدول الإسلامية عن الدفاع عن نفسها، وشهدت أفول نجمها ظهرت الخلافة الإسلامية كسد يمنع الشر عن البلدان الإسلامية فهم رجال حرب وقتال وسياسة كان اهتمامهم منصب على بناء خلافة تقف في وجه العدوان الصليبي شرقا وغربا.

وبالعموم ليس هدفنا هو تبرير هذا العهد أو تقديم مصوغات له بل تقديم موضوعية حول أحواله، بالنظر إلى خصوصيات هذا العهد وميزاته، والواقع الذي كانت فيه البلاد، ولذلك أسبقنا الجانب السياسي والاجتماعي والاقتصادي على الثقافي، فالسكان كانوا أحرار في تسيير شؤونهم فتجدهم يهتمون بقوت يومهم ولا يتدخلون في السياسة أبدا وكانوا هم المسؤولين عن التعليم وتربية أبنائهم فحين مارس الأتراك ما أجادوه.

ونظرا لهذه الأحوال السياسية والاضطرابات، فقد امتاز العهد العثماني بالجزائر بانتقال المراكز الثقافية من المدن إلى القرى[2].وانتشار واسع للمؤسسات التعليمية داخل وخارج المدن، خاصة منها الزوايا إلى جانب دورها الديني والتعليمي واحتفاظه بالثقافة الشعبية، أخرجت جملة متميزة من العلماء والكتاب والفقهاء والذين عملوا على الحفاظ على التراث الإسلامي[3].

وكان في طليعة البلاد الفقهاء الذين كانت لهم السلطة الروحية ويشاركهم فيها شيوخ الطرق الصوفية ومقدموها وذلك رغم انعدام الوفاق بين الفقهاء ورجال الطرق الصوفية وذلك أنهم اتهموهم بالبدع والتساهل في اقترافها[4]. لأن التصوف في هذا العهد مال عن أسسه ومعانيه، فالتصوف كان يعني التقشف والصلاح والعمل والصلاح والابتعاد عن الدنيا وأهلها على عكس تصوف مدعي الولاية من أصحاب الطرق الدينية التي شاعت وانتشرت في هذا العهد وكثرة مظاهره، وكانت السلطة حسب ما ظهر تتقرب إليهم وتساندهم بالأوقاف والمساعدات ولا تكاد تجد عالما أواخر القرن 18م إلا وهو منتمي إلى إحدى الطرق الصوفية، ويأخذ العالم فيها الوردة ومظاهر التصوف وكانوا يكتبون ذلك في مذكراتهم[5].

تجدر الإشارة أيضا إلى أن التعليم كان مستقلا عن الإدارة الحكومية حيث كانت نفقاته من ربع الأحباس والتي اشترك فيها المجتمع والحكومة، وبالرغم من أن الحكومة لم تهتم بالعلم وتحسين مستواه

([1])- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، لبنان، دار الفكر الإسلامي،1998 ،ص185

([2])- المهدي بوعبدلي ، مرجع سبق ذكره ،ص164.

([3])- نصر الدين سعيدوني: ولايات الغرب العثماني، ط2، الجزائر، دار البصائر للنشر والتوزيع، 2013، ص 146.

([4])- سعيدوني والمهدي: مرجع سبق ذكره، ص 137

([5])- أحمد السليماني: مرجع سبق ذكره، ص 72-73

ولم تنشئ لها أي وزارة ولا إدارة له، فالتعليم كان حرا كما أشرنا وأصبح على عاتق الأمة التي هي مسؤولة عن تعليم أطفالها وأبنائها لكن ذلك لم يمنع مشاركة العثمانيين حكاما، جنودا، وكراغلة في إقامة مؤسسات تعليمية بإمكانياتهم حينئذ[1].ولذلك قد ينفي ذلك اتهام المؤلفين للحكام العثمانيين حب جمعهم للأموال فلو أرادوا الأموال لاحتفظوا بها، ولما تبرعوا بها كما أن جل المؤلفين يؤكدون أن حركة الأوقاف أو الأحباس، عرفت تطورا كبيرا واتساع لدائرتها في عهد وجود هؤلاء بالبلاد، وهم في حد ذاتهم كانوا كثيرا الإيقاف وذلك تنفيذ للأحكام الدينية في هذا المجال ورغبة منهم في كسب أجرة عمل الواقف الخيرية.

ثم أن الدارس لواقع العثمانيين في البلاد الإسلامية والجزائرية يرى أن العثمانيين يفتقرون إلى عوامل تؤهلهم على الاندماج في المجتمع وبالتالي التفاعل مع طبقاته المثقفة، فيكفي أن العثمانيين لم يكونوا على لغة أهل البلاد فكيف تتوقع منهم تشجيع أدب هم أصلا لا يفقهون معانيه، ولذلك اكتفى الأتراك بطابعهم الإداري والعسكري[2].وإن تعمقنا في تركيبة المجتمع، وخاصة التركية ودراسة استعداداتهم أو بالأحرى إمكانياتهم الشخصية: كونهم على حسب ما ذكره المؤرخون ذو ميول حربية، وتعلقهم بالتجارة والأمور المالية، تجعل مساهمتهم في الإنتاج الأدبي والفني غير مضمونة وهذا بالإضافة إلى العناصر المركبة لفئتهم فالتركيبة كانت من الأعلاج والجنسيات المسيحية، الذين كانوا يجهلون تعاليم الدين الإسلامي وآخرين ارتدوا عن دينهم وأصبحوا حديثي العهد بالإسلام، ولا يعرف اللغة العربية أو لغة البلاد العامية، فكيف نتوقعه منهم الإبحار في لغة الأدب؟[3]. ولذلك اكتف هؤلاء بالمجال الذي يبرعون فيه، الجهاد البحري وإدارة البلاد ومحاولة الحفاظ على استقرارها وأمنها

من مميزات العهد العثماني على غرار سيطرة العلوم الدينية و الفقهية كثرة الإجازات التي حاز عليها العلماء سواء من داخل أو خارج البلاد والتي كانت تثبت ازدهار بعض المعاهد التي كانت المواد التي تدرس بها لا تقل عن مستوى الجامعات الإسلامية أنذلك. وقد أشار بعض المؤلفين إلى أن التعليم أو الثقافة في الجزائر كانت إقليمية جهوية أكثر منها وطنية[4]، حيث كان التعليم ينشر في حواضر معينة فبرزت لنا عدة مدن حافظت على النشاط العلمي والفكري فيها، ومنها مدينة الجزائر التي كانت عاصمة البلاد بالايالة الجزائرية العثمانية، فقد كثرت فيها الحركة العلمية، فأخرجت هذه المدينة بجل مؤسستها

([1])- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 192

([2])- نفسه، ص 194.

([3])- نفسه: ص 195.

([4])- ابن ميمون،مصدر سبق ذكره،ص 55

جملة من العلماء الذين احتكروا وظائف معينة في المجتمع وهي الإفتاء والقضاء والتعليم والإمامة والخطابة[1].

وهذا على غرار مدن أخرى كانت وظلت في العهد العثماني حواضر علمية، كقسنطينة في بيلك الشرق، ومدرسة مازونة في إقليم الغرب التي كانت منارة للعلماء، و إقليم الجنوب كان له مرجعية ونشاط فكري وتعليمي، واخترنا الإشارة إلى هذه النماذج كجزء باب التقسيم السياسي للإيالة، ونتعرف على الوضع التعليمي والفكري بهته الحواضر، كجزء من كل أقاليم البلاد، ونكون بذلك صورة عامة عن أوضاع الثقافة في العهد العثماني

لقد تزعمت قسنطينة بايلك الشرق باعتبارها عاصمة له و كتب عنها القنصل الأمريكي وليام شارل: قائلا هي سرتا القديمة، وتقع على وادي الرمل ويقدر عدد سكانها بحوالي 25 ألف نسمة[2]. ولم تختلف هذه المدينة عن العاصمة في التركيبة الاجتماعية إلا أن هذه المدينة كانت وطنية في الصميم على عكس مدينة الجزائر التي كانت دولة مفتوحة، دخلت هذه المدينة في الحكم العثماني سنة 1632م وقد مكنتها حصانتها الداخلية والطبيعية من كسب أهمية بالغة وخاصة أنها قريبة من تونس[3].واحتلت مدينة قسنطينة دورا هاما في العهد العثماني حيث كانت ذات مركز استراتيجي فعلى غرار كونها عاصمة البايلك الشرقي كانت تربط بمدن لها مكانة وتاريخ كمنطقة الزواوة، وبني مزاب، وتضم في فحواها الثقافي أسر عريقة في العلم والمعرفة وتحدث المؤرخون الأوربيون كثيرا عن المدينة وجمالها وموقعها و أهليتها بالسكان وموقعها كحاضرة استقطاب تجاري علمي واقتصادي[4].

لقد ضمت هذه المقاطعة مناطق أو مدن علمية عريقة كما أسلفنا الذكر كمناطق الزواوة، التي اشتهرت بمراكز ثقافية ممتازة، وتكونت بها أسر علمية توارثت العلم لقرون، ولم تقتصر شهرة هذه الأسر داخل البلاد بل تعدتها إلى العالم الإسلامي شرقا وغربا، وانتشرت معاهد العلم خاصة بعد سقوط بجاية في أيدي الاسبان من خارج المدن إلى القرى الواقعة بوادي بجاية وبني يعلي العجليسي، وكان مؤسسوها من علماء البلاد والأندلسيين، وحاز هؤلاء على إجازات علمية أزهرية، وتحمل أيضا إجازات

([1])- أحمد السليماني: مرجع سبق ذكره، ص 71

([2])- وليام شارل: نبذة تاريخية عن دولة الجزائر، تعريب وتعليق : محمد العربي الزبيري، منشورات وزارة الشؤون الدينية مجلة الأصالة، تلمسان ،2011، عدد15، مجلد 5، ص 62.

([3])- أبو القاسم سعد الله: مرجع سبق ذكره، ص 174-175.

([4])- نفسه، ص 174-175

تثبت الفنون التي كانت تدرس بهذه المنطقة وهي نفسها التي تدرس بالجامعات الإسلامية كالأزهر والزيتونة والقرويين[1].

ولقد ظهرت بالحاضرة أسر علمية عريقة تداولت العلوم منذ قرون مثل أسرة الفكون[2] التي أنجبت جلة من العلماء أمثال العالم الأديب أبو حسن بن الفكون والذي اشتهر بمنظومته التي تضمنت رحلته من قسنطينة إلى مراكش وفيها وصفا جغرافيا لطريق الرحلة. ومن الأسر التي اشتهرت أيضا أسرة أبي الحسن أحمد بن الخطيب بن القنفذ صاحب تأليف الفارسية في مبادئ تاريخ الحفصية إضافة إلى أسرة ابن باديس التي عرفها عبد الكريم ابن الفكون في تأليفه منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم و الولاية، وهذه الأسر لم يقتصر دورها في المجال الثقافي بل تعداه إلى الجانب السياسي حيث كانت لهم دورا في تسيير شؤون البلاد، حيث تزعم الفكون الجد الرأي والذي ساند الأتراك على حساب الحفصيين وأصبحت عائلته بعد تواجد الأتراك بها ترث وظيفة شيخ البلد [3].

وبالعموم فإن حاضرة قسنطينة كانت إلى عهد الأتراك عاصمة دينية وكان العلماء بها يتمتعون بحرية مطلقة والنفوذ التام، كما كانت غاصة بعدد كبير من الطلبة ينهلون العلم بالإضافة إلى أنها مبعث نور للعلماء وتشرفهم وتقدرهم[4].وضمت هذه الخيرة منشآت عمرانية كثيرة كالثكنات والمساجد والقصور والمدارس، حيث أنها كانت تضم خمسة مساجد جمعة، خلال القرن 18م وهذا ما جلها ذات شهرة علمية في العالم الإسلامي لا يضاهيها في ذلك سوى شهرة فاس والقاهرة[5].

ولعلى أهم حدث عاشته هذه المدينة وهو عهد صالح باي* الذي اعتني بهذا البيلك، فشهد في عصره تطورا ونشاطا تجاريا واقتصاديا وصناعيا وأصبحت بذلك قسنطينة المدينة الثانية في الإيالة وسعى هذا الأخير إلى تحسين الأوضاع الثقافية ولعلى أعماله التي خلده بها التاريخ دليل اهتمامه فقد شيد هذا الأخير مدارس ومساجد مثل مدرسة ومسجد الكتاني الذي أطلق على الحي الذي هو من انجازاته أيضا.

([1])- المهدي بوعبدلي : تراجم بعض المشاهير وعلماء الزواوة والقبائل الصغرى والكبرى، مجلة الأصالة، مجلد 4، عدد13

([2])_ عائلة الفكون أسرة عريقة في منطقة قسنطينة،من قبيلة تميم العربية،بلغت هذه العائلة مكانة مرموقة في عهد الأتراك حيث قيادة ركب الحجيج الى الحجاز وكان لهم زاوية ومدارس يؤوى إليها الطلبة تعدت شهرتها خارج بلاد .لتفاصيل أكثر أنظر ابن الفكون في منشوره.

([3])- المهدي بوعبدلي : تاريخ المدن، ص 276.

([4])- ابن ميمون، مصدر سبق ذكره، ص 52

([5])- أبو القاسم سهد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 176

* يعتبر عهد صالح باي من أزهى العصور حيث شهدت فيه المنطقة أرقى عصورها وتطورا ثقافيا في العهد العثماني في حكم خلال الفترة 1771 م -1792)

كما شيد مدرسة أخرى بالجامع الأخضر سنة 1789م وجامع آخر بعنابة 1792 م وقد خصص للإنفاق عليها أوقافا كثيرة بالإضافة إلى اهتمامه بمساجد قسنطينة وزواياها وبلغ عدد الجوامع الكبرى خمسة أما المساجد الصغرى فبلغ عددها 70 مسجدا وعدد الزوايا 13 زاوية وبالأكثر من ذلك اهتمامه بالتعليم حيث وضع نظاما دقيقا يتقيد فيه الطلبة والأساتذة الذي أصبح لهم أجور قارة وبرنامج دراسي محدد[1].

أما أواخر العهد العثماني فتسمح شهادة أبي القاسم الزياني(1794-1833م) وعلماء آخرون بفهم صورة الوضع الثقافي لقسنطينة، حيث ذكر هذا الأخير في مدته القصيرة بقسنطينة أنها استطاعت أن تحافظ على ركبها الثقافي الذي كانت عليه أيام صالح باي وذلك من خلال احتكاكه بشيوخها الذين يعتبرون امتدادا طبيعيا لحركة العلم التي شهدتها قسنطينة في العهد العثماني (فترة صالح باي) [2].

أما في وسط البلاد فإن مدينة الجزائر حظيت بمكانة مرموقة طيلة العهد العثماني فعلى غرار كونها عاصمة البلاد فقد كانت محطة استقطاب تجاري وثقافي. نمت هذه المدينة بوتيرة سريعة في القرن 10هـ-16م، ولقيت استحسان جميع الرحالة المغاربة والأوربيين، منهم الرحالة المغربي ابن زاكور إذ يقول عن المدينة« ولما منى علي المولى الكريم، ذو الفضل السابق العظيم، بدخول مدينة الجزائر ذات الجمال الباهر وحلول مغانيها النواظر، التي غص ببهجتها كل عدو كافر... » كما وصف إعجابه بعلمائها فقال : « ما شئت من حدائق كالنمارق وقصور نوع المحاسن عليها مقصور والذي أعارها ذلك المرأى الجميل» إلى أن يقول «غرر أعلام ينجلي بهم الظلام، وشموس أئمة تخرج بها كل غمة، وتفتخر بهم أحبار هذه الأمة» إلى أن يقول « ...ورتعت في رياض آدابهم،ونهلت من حياض علومهم حتى تضلعت .... »" [3].وهذا الوصف كان في نهاية القرن 16م وبدايات القرن 17م ووصف دليل على أحوال الثقافة في هذه المدينة، وإعجاب الرحالة بها، وحسب أبو القاسم سعد الله فإن هذا الوصف انطبع على زائريها في القرن 18م " ووجدها في كتابات عبد الرحمن الجامعي المغربي، مصطفى بن رمضان العنابي ومحمد بن ميمون وأحمد بن عمار[4].

([1])_ نصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، ص(295-296)

([2])- الطاهر بونابي: ملامح النشاط العلمي والروحي والثقافي بقسنطينة أواخر العهد العثماني بالجزائر، مجلة العصور، البحث التاريخي، عدد18 خاص بقسنطينة، أكتوبر 2015.

([3])- ابن زاكور الفاسي: نشر أزاهير البستان فيمن أجاز في الجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، تحقيق مصطفى ضيف ومحفوظ بوكراع، الجزائر، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، 2011، ص(40-41)

([4])- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ص 171

وكانت العاصمة تضم عددا كبيرا من المؤسسات الدينية والعمرانية من ذلك المساجد والزوايا والقباب، وشهدت في القرن 18م نهضة فكرية شملت تشجيع العلم والإهتمام بالعلماء وأحوالهم والعناية بالمؤلفات وساهم في ذلك بعض البايات منهم صالح باي ومحمد الكبير فاتح وهران. كما اشتهرت بالمدينة بعد شيوع المدارس والمساجد بها التي غذت ثقافة المجتمع اشتهرت بعائلات اعتنت بالتعليم والعلم والتأليف والتصوف منها ابن السكات وكذا الزاهد العالم عبد الرحمن الثعالبي * وتلميذه عبد الله الجزائري*[1].وحسب ما تناقله عنها المؤرخون فإنها حافظت على مكانتها لدى العلماء و طالبي العلم، فنجد الجامعي يقول " وأما مدينة الجزائر فأول بلد لقيت بها مثل ما فرقته من أدباء بلدي، وبها تذكرت بعض ما نسي خلدي..". [2].

وهذا دليل على أن العلوم التي كانت بفاس نفسها كانت موجودة بمدارس الجزائر، وحتى وإن غابت بها معاهد كالقرويين لكن مستواها في نفس الدرجة

وفي موضع آخر قال الجامعي* "فهي والحمد لله إلى الآن دار الجوهر الفرد في الأدب، وعلم العقل والنقل، وتنجب العلماء والصالحين... وهذه المدينة لا تخلو من قراء نجباء وعلماء أدباء، وأعلام خطباء، مساجدهم بالتعليم معمورة، ومكاتب أطفالهم بالقراءة مشحونة ومشهورة..." [3].

وقد يغنينا الجامعي من تحليل أو التعليق على هته الفترة، وقد لا يكفي المقام إلى الإشارة إلى جملة العلماء والفقهاء الذين ظهروا في هذه الفترة، أما أواخر العهد العثماني، فقد كتب عن حسن كرم أهلها وكثرة الجالية الفاسية بها، واعتناء أهلها بالمساجد حيث شهد إعادة تجديد جامع كتشاوة، وفي هذه الفترة كانت البلاد تحت رحمة الوباء الذي قضى على نصف السكان[4].ومع تولي صالح باي ومحمد الكبير الإدارة والولاية على البلاد حرصوا على نشر مؤسسات التعليم وإصلاح أوقافها، فكثرت المساجد

([1])- أحمد السليماني: مرجع سبق ذكره، ص(72-73)

* هو من أعلام البلاد وعلمائها، صوفي ومن كبار المتصوفين، متعلم من خارج البلاد ودالها اعتني بالقضاء والتدريس، وله أكثر من 90 مؤلفا منها الجواهر الحسن في تفسير القرآن ت 1480_من أعلام العلماء في العلوم النقلية و العقلية،له اشتغال بالحديث والتاريخ.

([2])- ابن ميمون، مرجع سبق ذكره، ص 54

([3])- نفسه، ص 55.

* هو أبو زيد محمد بن عبد الرحمن الجامعي الفاسي أديب وكاتب رحالة مغربي حط رحاله بمدينة الجزائر في القرن 13م والتقى بشاعرنا المعروف ابن علي وقال عنه أديب العلماء وعالم الأدباء ومن مؤلفاته شرح أرجوزة الحلفاوي التاج المشرق الجامع لمواقيت المغرب والمشرق، نقلا عن جمال سعادنة :الشعر الجزائري في العهد العثماني، ص16

([4])- مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني في الجزائر، الحركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص 37

وبالعموم فإن المساجد لم تكن قليل وكذا المؤسسات الأخرى وقد شارك في بنائها الأهالي والعثمانيين و كلا الطرفين ساهما بأوقافهم وحبوسهم[1].

عن هذا إقليم الوسط أما إقليم الغرب فقد اخترنا مدرسة مازونة نظرا للمكانة التي نالتها هذه المدرسة الفقهية خاصة أنها كانت قريبة من مدينة فاس وظلت على مدار خمسمائة سنة منارة للعلم إلى أن لفظت أنفاسها مع الاحتلال الفرنسي سنة 1839م[2].و بنا أحد المهاجرين الأندلسيين مازونة المشهورة والتي تخرج منها عدد من الفقهاء خلال العهد العثماني، وظلت هذه المدرسة محافظة على سمعتها حتى بعد انتقال كرسي الحكم من مازونة إلى تلمسان ويمكن القول أن المدرسة اشتهرت على حساب تلمسان التي فقدت قيمتها في العهد العثماني من جراء ما تعرضت إليه من الاحتلال الاسباني ونتيجة لأوضاعها السياسية هاجر عدد كبير من عائلاتها الغنية والعلمية إلى المغرب الأقصى[3].

ويقول أبو القاسم سعد الله أن مدرسة مازونة ومدرسة الخنقة كانت من أشهر المدارس من غير العواصم أو الحواضر العلمية كقسنطينة والعاصمة ومازونة كانت على درجة كبيرة من الأهمية في إقليم الغرب، وكان لها نظام راسخ وتقاليد متينة استمدتها من الأندلس والمغرب الأقصى وتلمسان بمعنى أنها حافظت على تقاليد الأولين في مبادئ التعليم والتلقين، وهي من أقدم المدارس واشتهرت كما أشرنا في الفقه والحديث وعلم الكلام وكانت هذه الأخيرة مقصد الطلاب بالنواحي الغربية خاصة من ندرومة ومستغانم وتنس وتلمسان ووهران[4]. وظل معهد مازونة طيلة العهد العثماني من المعاهد العليا بالبلاد، ومحل تشد إليه الرباط وتخرج العلماء الأكفاء منهم أبي راس الناصري ومحمد بن علي السنوسي، الحافظ الرمامي وغيرهم وامتازت هذه الأخيرة باتساع حقل طلابها الذين كانوا يأتون من مختلف القبائل وحتى المغرب الأقصى وبقيت إجازاتها تعتبر في تلك النواحي وخريجيها قضاة وموظفون في العدالة إلى أن لفظت أنفاسها في الحرب العالميةالأولى1[5].

أما إقليم الجنوب فقد أشتهرت منه بعض المدن مثل بسكرة ومعهد الخنقة الذي كان على درجة عالية مثل معهد مازونة بالإضافة إلى مدينة تقرت وميزاب وواد سوف وورقلة ويقول أبو القاسم سعد الله أن هذه المدن الصحراوية ذكرت في الرحلات إما لعلمها أو لموقعها الاقتصادي واشتهرت عدة جوامع ومعاهد كانت تشد إليها الهمام والرباط من كل إفريقيا، خاصة إلى ضريح وخلوة سيدي عبد الرحمن الأخضري

([1])- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ج1، ص262.

([2])- سعيدوني والمهدي: مرجع سبق ذكره، ص 129

([3])- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1،(177-183)

([4])- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 185

([5])- المهدي بوعبدلي: جوانب من الحياة الثقافية، ص (195-196).

[1].والملاحظ على إقليم الجنوب الجزائري أن الرحالة لما يذكرونهم يتوجهون إلى الوصف الجغرافي كما فعل الحضيكي أو العياشي غير أن العياشي كان أكثر تفصيلا في وصفه للصحراء الجزائرية فرحلته في القرن 17 ألقت الضوء على الحياة الثقافية والاقتصادية والسياسية للصحراء الجزائرية.[2]. ومعظم المؤرخين يستدلون بضعف الثقافة الجزائرية وسوء الحكام ومعاملتهم للعلم والعلماء ومؤسساته، بمدينة بسكرة فشهادة كل من العياشي والورثلاني حول هذه المدينة تبرز مدى انحطاط الوضع الثقافي في المنطقة التي كانت منارة في الماضي، مع إبراز مدى الجهل وشيوع التقليد والدروشة، وحسب مقدمة كتاب الدولة البكداشية فهي شهادة ووثيقة أمينة أفاد به عالم عاش في القرن 11ه أعطى صورة عن الجهل وانحطاط المستوى اللغوي والشهادة الثانية هي للورثلاني في رحلة نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار في الصفحة 12 ويبين وصفه مدى الخراب في الحياة العلمية والتعليم[3].ويرى أبو القاسم أن وصف هذان العالمان كان في فترة عانت فيه هذه المدينة من ويل الأتراك وظلمهم وكثرة الحرب وانتشار الأوبئة وسيطرة الأتراك على الأوقاف[4]. ولكن هذا لم ينفي أن العياشي[5]ذكر أمور ايجابية أخرى تخص الجانب العلمي والثقافي فهو ذكر أن رجال العلم كانوا شديد الاهتمام بالكتب ووجد نوازل البروزلي بخط ابن مرزوق وإجازات لبعض القادرية كما عثر على موطأ مالك وصحيح البخاري ومختصر الرسالة والأكمل ويضاف إليه انتشار الزوايا وأضرحة العلماء والصلاح وأكثر المواد دراستا إلى الطلبة هو الفقه[6]. وقد لا نملك المعلومات الوافية عن إقليم الجنوب ومشواره الثقافي، غير أن المؤسسات التعليمية كانت موجودة لكن غياب الأمن والاستقرار أثر على إنتاجها ومستواها ولم يمنع هذا من أن تكون بعض المدن محط أنظار طالبي العلم، فيكفي الصحراء الجزائرية مدرسة الخنقة وتنسب هذه المدرسة بالناصرية نسبة إلى أحمد بن ناصر مؤسسها سنة 1171ه وكانت مقصد طلبة الزبان ووادي سوف والأوراس وقسنطينة وتخرج منها علماء أجلة كأحمد التليلي[7].

([1])- أبو لقاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 179

([2])- مولاي بالحميسي، مرجع سبق ذكره، ص 15.

([3])- ابن ميمون : مصدر سبق ذكره، ص-ص(51.50).

([4])- أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 180

([5])- أنظر وصف العياشى لوضع المدينة في رحلته ماء الموائد.ج1،ص30

([6])- مولاي بالحميسي، مرجع سبق ذكره، ص 30

([7])- أبو لقاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 284

الفصل الثاني

النشاط العلمي لحواضر المغرب الأوسط

التعليم مناهجه ومؤسساته

الحياة الأدبية والفقهية

الحياة الروحية والدينية

القضاء والأوقاف

ارتبط الوضع الفكري والحياة الثقافية في بلاد المغرب الأوسط بالمؤسسات التعليمية والتنظيمات الحيوية وتأثرت هذه المؤسسات إلى حد كبير بدور الفقهاء في المدن، وشيوخ الزوايا في الريف بينما عكست العمارة والموسيقى والفنون أذواق وميول ونوعية حياة سكان المدن والريف[1] ولقد أشرنا في الفصل الأول في العنصر الثالث إلى النظرة العامة التي يصف فيها المؤرخون الثقافة في المغرب الأوسط، وبالعموم ألصقت صفة اللامبالاة رغم وجود بعض الحكام الذين أولوا اهتمامات واضحا بالعلم ومؤسساته، وتبرز لنا الدراسة أو العنصر الموالي تنوع مراكز التعليم والثقافة ،وهو ما سنبرزه في مؤسسات التعليم وواقع الحياة الأدبية والفقهية بالإشارة إلى بعض أعلام البارزين ودور الجانب الديني والروحي في النشاط العلمي.

التعليم ومناهجه ومؤسساته:

كان التعليم في العهد العثماني موزع على مراكز تسير حسب ظروف العصر وهذه المراكز هي على النحو التالي[2]

المساجد والزوايا:

المساجد: هي أماكن للعبادة والتعليم وقد أشار أبو القاسم سعد الله إلى الاختلاط بين الوظائف لكل من المسجد والجامع والزوايا، حيث أن المسجد أو الجامع تمثل وظيفتها بالدرجة الأولى في الصلاة و الإمامة وتعليم الفروض ومختلف العلوم الأخرى المتعلقة بحياة المسلمين إلى غير ذلك من القضايا الاجتماعية التي تهم الناس بحياتهم اليومية.[3] وفي خارج أوقات الصلاة هي مكان لتلقي الدروس اليومية في حلقاتها وتدرس مختلف العلوم والفنون.

وتفتقر المصادر الجزائرية إلى إحصائيات دقيقة حول عدد المساجد في العهد العثماني باستثناء بعض الإشارات الأوروبية والإحصاءات الفرنسية بعد الاحتلال، حيث يذكر هايدوا أنه في القرن 16م كان يوجد في مدينة الجزائر حوالي 100 مسجد منها 7 رئيسية وفي القرن 19م ذكر الإيطالي بانتي أن هذه المدينة تضم تسعة جوامع وخمسين مسجدا، غير أن المؤرخ الفرنسي ديفوكس ذكر في المجلة الإفريقية الصادرة بتاريخ 1862 في الصفحة 372 أن عدد المساجد عند الاحتلال كان

(1)- نصر الدين سعيد وني: ولايات المغرب العثمانية، ط2، الجزائر، دار البصائر للنشر والتوزيع، 2013، ص 191.

(2)- د. محمد سي يوسف: نظام التعليم في بلاد الزواوة بالايالة الجزائر في عهد العثماني، مجلة الثقافة، عدد20، جويلية 2003، ص 101.

(3)- أبو القاسم سعد: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 245.

ثلاثة عشر مسجدا كبيرا (حنفية)، 109 مسجدا (92 مسجدا مالكيا)، واثنان وثلاثون 32 قبة، واثنا عشر 12 زاوية، فمجموع ما فيها مائة وست وسبعون (176) مؤسسة [1].

أما في إقليم قسنطينة فقد احتوى على (71) واحد وسبعين مسجدا، بالإضافة إلى ما كان من مساجد في شرق البلاد ووسطها، فقد أنشأت السلطات العثمانية عدد آخر منها، في غرب البلاد حيث كانت تلمسان تضم (50) مسجدا منها جامع سيدي بومدين وجامع الكبير وغيرها، بالإضافة أن فترة الباي محمد عثمان باشا تعززت فيه المساجد أين بنى مسجده الأعظم المعروف بجامع العين البيضاء[2].

وهذه الإحصاءات كانت في عهد الاحتلال وقد لوحظ أن رغم انتشار عدد المساجد والجوامع فإن الاعتناء بها لم يكن في المستوى المطلوب الأمر الذي دفع بالمؤرخين إلى احتسابها كنقطة سوداء على تاريخ الأتراك باستثناء فترة حكم صالح باي ومحمد الكبير وباي وهران محمد عثمان باشا[3]. ويؤكد ذلك هجوم الورثيلاني* في رحلته فقال" ...فلا تكاد ترى في مدائنهم مسجدا عظيما قد أحدث، بل ولا مهدما قد جدد..." ولنا أن نقيس على ذلك[4].

وكانت المساجد تتحول عقب صلاة الجمعة إلى حلقات دروس علمية حيث يلتحق الطلبة لمزاولة دروسهم التي تكون في حكم المتوسطي والثانوي في يومنا بينما وصلت تلك الحلقات إلى مستوى التعليم العالي، إذا توفرت على عدد من كبار العلماء من ذلك حلقات دروس الجامع الكبير بالعاصمة إلى قدمها المفتي سعيد قدور* والشيخ علي الأنصاري.*

أما الزوايا: تعتبر من المؤسسات التربوية في العهد العثماني، ذلك أنها أحد الركائز التي تأثر على الساحة الثقافية والفكرية و السياسة في كثير الأحيان، وكان عددها حسب ابن أبي شنب قبيل الاحتلال الفرنسي 349 زاوية موزعة على ربوع الوطن[5]. لكن تعدادها اختلف على حسب المصادر

---

(1)- محمد سي يوسف: مرجع سبق ذكره، ص 101.

(2)- أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 248.

(3)- نفسه، ص (249، 250، 248، 247.)

(4)- نفسه، ص(250، 251).

* للمزيد حول وصف الورثلاتي، أنظر رحلته في الصفحة، 266.

*المفتي سعيد قدور: هو الإمام العلامة المفتي أبو عبد الله سيدي محمد بن الإمام الأكبر، أبي عثمان سيدي سعيد بن إبراهيم عرف بقدورة، شيخ فقيه عارف به وبالحديث، وكان مرجع عصره في القضايا الفقهية والنوازل، وقد اعتلى مراتب خطيرة وكان مفتي ومدرس، أنظر أبو القاسم الحفناوي: تحريف الخلف برجال السلف، ص 282، 283، توفي سنة 1066

* هو سجلماسي، أصله من سلجماسه، استقر بالجزائر بعد عودته من الحجاز، توفي سنة 1075هـ.

(5)- أحمد مريوش وآخرون: الحياة الثقافية في الجزائر في العهد العثماني، الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والأبحاث، 2007، ص 146.

ذلك أن الزوايا في بداية ظهورها في المغرب كانت مرادف لكلمة رابطة وهي المكان الذي ينعزل فيه الولي ويعيش فيه بين تلاميذه وخدمة للدين، ثم تطورت وأصبحت وظيفتها كمكان للعبادة محلا لإيواء المسافرين وإطعامهم ثم تطورت مرة أخرى فورثت وظائف الرباط ومن بينها الوظيفة الحربية إلى حد ما وكذا الوظيفية التعليمية وإلى غيرها من وظائف الرباط بالمغرب.

وقد اكتسبت الزوايا مكانة عالية لدى طلبة العلم خاصة إذا كان بها علماء كبار، ولهذا كانت تحتل الصدارة بين مراكز الثقافة من ناحية تلتقين أفراد المجتمع حيث أن التعليم بها كان مقسم إلى قسمين اثنين: كل قسم منها يقوم بدوره أحسن قيام: القسم الأول: يتم تحفيظ القرآن للأطفال وتعليمهم القراءة والكتابة، بينما القسم الثاني يأهل فيه الطالب ممن أثبت جداره وتفوقا لتلقيه مختلف العلوم الدينية لاسيما الفقه، والعقائد وقواعد النحو والصرف وفنون البلاغة والمنطق وبعض مبادئ في علم الفلك[1].

وكما هو معروف فقد اشتهرت منطقة القبائل بعددها الكبير في مؤسسة الزوايا حيث بلغت الخمسين زاوية أشهرها زاوية سيدي التواتي ومعهد الشلاطة أما في العاصمة فقد أحصي أكثر من 12 زاوية أشهرها زاوية عبد الرحمن الثعالبي وسيدي عبد القادر الجيلالي، وسيدي الكتاني. وفي حاضرة قسنطينة اشتهرت زاوية الفكون، وزاوية مازونة في الغرب التي ذاع صيتها بسبب مستواها العالي في التعليم[2]. وكذلك احتوى الصحراء على زوايا أشهرها زاوية الهامل وسيدي خالد وبسكرة زاوية سيدي عقبة وطولقة وعين ماضي وتماسين، أما مناطق الجنوب فقد حظيت هذه الأخرى بانتشار العديد من الزوايا في إقليمها، أشهرها زوايا إقليم التوات ولعبت زوايا الجنوب دورا كبيرا في تجميع سكان الصحراء، وكان لها دور في نشر الإسلام في جنوبها[3].

ولعبت الزوايا دورا إيجابيا سواء التي أنشأها المرابطون أو الطرق الصوفية لا سيما في الريف، فالحركة التعليمية التي قادتها نشرت الثقافة بالبلاد خاصة في فترة لم يكن هنالك متصدي لها وأحدث هذه الأخيرة بتواجدها توازن في التعليم بين المدن والأرياف وكانت في البادئ منتشرة في الأرياف وأعالي الجبال، والمميز في مؤسسة الزوايا وهو نظامها الداخلي، فهي على نوعين من الأنظمة، الأول يكون فيا الطلبة نوعان داخلين لا يغادروها إلا في المناسبات، وخارجين لا يأتون إليها إلا للدراسة فقط، والنوع الثاني داخلي دائم أين يتم التكفل بالطالب وحاجياته دون مقابل في أغلب الأحيان.

---

(1)- العيد مسعود: المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني، مجلة سيرتا، الجزائر، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، العدد10، أفريل، 1988.

(2)- ابن ميمون: مصدر سبق ذكره، ص 59.

(3)- أحمد مريوش: مرجع سبق ذكره، ص 168، 169.

وهذا النظام الذي اتبعته الزوايا سمح بتحديد واجبات وحقوق كل طرف فيها، فقد حدد دور المقدم وحقوقه، وحدد العلاقات الخارجية للطلاب مع بعضهم البعض ومع غيرهم من المشرفين عليهم بالإضافة إلى الحرص على العقوبة وتحديدها لكل نوع من الأخطاء.ويمكن أن نلاحظ أن الزاوية هدفت على حسب نهجها إلى تنظيم شؤونها الداخلية وتعدته إلى أهداف تربوية وأخلاقية وعلمية وعملية في المستقبل، وبذلك احتفظت الزوايا سواء المرابطية أو الطرقية بدور تعليمي وشعاع ثقافي بالرغم من اعتناقها لمتقدات تافه.[1]

المدارس والكتاتيب:

الكتاتيب هي أماكن خصصت لإستظهار كتاب الله، وهي أول محل يتلقى فيه الطفل الحروف الهجائية، بواسطة اللوح المصلصل والقلم والقصبي، وتنتشر غالبا في المساجد التي تقام فيها الصلوات والدكاكين وأضرحة الأولياء[2]، وقد انتشرت ثلاثة آلاف كتاب بمختلف جهات القطر وهي تعتبر المرحلة الابتدائية و إضافة إلى مواد السابقة توجد مبادئ الحساب [3]

واختلف التسمية التي أطلقت على الكتاتيب، فقد كان يعرف باسم المسيد بالعاصمة، واختلف أسماء الكتاتيب بالنظر إلى الجهات التابعة لها وذلك لكثرتها فقد كان بإمكان أي فرد في المجتمع من فتح المكتب، ولذلك كانت توجد كتاتيب في كل حي وبعضها يحمل اسم الحي وآخر اسم الجهة الموقوفة له سواء كان شخصا أم زاوية أم هيئة حكومية أو دونها[4] . ووصفت هذه الأخيرة على أنها غير مستوجبة للشروط الصحية، لأنها كان تقام من أبسط الوسائل 'قطعة مسجد جزء من منزل، كان الأطفال يحشرون فيه حشرا لكثرة الوافدين إليه في هذه المرحلة، وكانت تهدف في مرحلتها الابتدائية من التعليم للقضاء على الجهل بتعليم القراءة والكتابة، وتربية وتثقيف الطفل وفقا لمبادئ الشريعة الإسلامية وتلقيه للمبادئ الأساسية لدينه وإعداده للمراحل التكميلية في العملية التعليمية[5].

واختلف الإحصاءات حول عدد الكتاتيب لعدم إشراف السلطة عليها، غير أن بعضها أشار إلى وجود 80 كتابا في العاصمة في فترة الاحتلال منها مكتب العمالي والشماعين، وكثرة الكتاتيب بأزقة تلمسان فبلغت 50 كتابا يؤمها أكثر من ألفي طفل وأحصي 86 مكتبا بقسنطينة[6].

---

(1)- العيد مسعود: مرجع سبق ذكره، ص(23، 24، 26).

(2) ابن الميمون: مصدر سبق ذكره، ص 58.

(3)-أحمد التوفيق المدني: محمد عثمان باشا، ص 62.

(4)- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ص(276، 277.)

(5)- أبو القاسم سعد الله: نفسه، ص(278، 279).

(6) - أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي، ص(284، 275، 276).

أما المدارس فإنه من الصعب الفصل في مفهومها أو وظيفته لعدم وجود تراتبية واضحة، فالمدرسة أيام المؤرخ أبو راس الناصري (1165- ه1237) التي قال عنها في تأليفه عجائب الأسفار " المدرسة المتعارف عندنا الآن هي التي تبني لدراسة العلم أي لتعليمه وتعلمه، كمدرسة ابن الإمام* بتلمسان، و الغشاشية بالجزائر والمحمدية بأم معسكر". وعليه فإن أول مدرسة بنيت حسب قول المؤرخ هي مدرسة ابن الإمام بتلمسان التي بناها أبو حموا الزياني لولد الإمام بعد مقتل والده في القرن 7هـ وتليها مدرسة أبو تاشفين بنفس المنطقة[1].والمدارس هي أمكنة مخصصة لإلقاء الدروس به ولا توجد إلا بعض المدن الرئيسية مثل: العاصمة وبجاية، تلمسان وهران.[2] ومنه فقد ظهرت مدرسة القشقاش بالعاصمة وذكرها أبو راس الناصري في تأليفه لما زارها أول مرة في سنة 1204هـ/ وكان بجانبها زاوية وكان لها أحباس كثيرة وضخمة حسب ما أحصاه ديفوكس في تأليفه المعاهد الدينية بالجزائر[3] هناك أيضاً مدرسة الجامع الأعظم المالكي الذي كثرة أوقافه خاصة مع قوة الجهاد البحري ومن احبساها في عهد الشيخ سعيد قدور أسير أعطاه الرايس مامي القائد البحري لمفتيها المذكورة لأجل شراء دكانا يكون حبسا على المدرسة المقابلة للمسجد. وهناك المدرسة العنابية أو مدرسة أبو عنان هذه المدرسة هدمت وبينت على أنقاضها الجامع الحنفي الجديد حوالي سنة 1070هـ/ 1660م[4] ،وكانت هناك مدارس أخرى في قسنطينة معسكر ووهران وذكر أبو راس المدرسة التي أنشأها عثمان باشا سنة 1206ه ،وقد نالت إعجاب غالب الشعراء والزائرين لها، وبنيت المدرسة والمسجد حسب ما هو متعارف عليه في ذلك الوقت، بالإضافة إلى مدرسة مازونة وقد سلفنا الذكر عنها، والتي كان عليها الشيخ محمد بن أبو طالب الذي شارك في حرب وهران لطرد الأسبان منها. وقد حبس هذا الباي أحباسا كثيرا وكتب منها: صحيح مسلم (المخطوط)، وأخرجت هذه المدرسة جملة من العلماء الأجلاء منهم أبو راس الناصري* محمد بن علي السنوسي* الحافظ الرماصي [5].

---

(1)- المهدي بوعبدلي : مراكز الثقافة ومخازن الكتب بالجزائر عبر التاريخ الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، طبع المؤسسة الوطنية، مجلة الاصالة، مجلد 5، عدد 11-2012، ص 86.

(2)-ابن ميمون: مصدر سبق ذكره، ص 59.

(3)- المهدي بوعبدلي: الحياة الثقافية بالجزائر، ص38 ، 39.

(4)- المهدي بوعبدلي: مراكز الثقافة ومخازن الكتب، ص 93.

*أبو راس (1737-1884)، هو محمد بن احمد بن عبد القادر بن محمد الراشدي الجليلي العسكري المعروف بأبي راس المؤرخ، حافظ له عدة مشاركات في الفقه والحديث والأدب، له مؤلفات كثيرة، منها رحلته التي ذكر فيها سياحته للمشرق والمغرب من لقي من الأحياء وكتاب" فتح الإله ومنت في التحدث بفضل رمي ونعمته"، وغيرها من المؤلفات، عادل نويهض: أعلام الجزائر، ص 306، وذكره الحفناوي في كتابه، ص 76.

* السنوسي، محمد بن علي السنوسي(1787م- 1809) هو محمد بن عي السنوسي الخطابي، مؤسس الطريقة السنوسية بليبيا، درس مختلف العلوم والفنون، وارتحل عبر البلاد العربية، وتعرف على واقعها له عدة مؤلفات منها المسائل العشر لبقية القاصد وخلاصة المرصاد) الدرب السنية في أخبار السلالة السنوية وغيرها من المؤلفات في مختلف الفنون: عادل نويهض، مرجع سبق ذكره، ص 179- 180.

* الرماصي(ت- 1724) هو مصطفى بن عبد الله بن محمد مؤمن الرماصي، من فقهاء المالكية نسبة إلى قرية رماصة بمستغانم، خريج مازونة وعاصر آمل القاهرة وأخذ عن علمائها وصفه عبد الرحمان الجامعي الناسي بحامل راية الفقه المالكي في عصره، ومصره، من أثاره: كفاية المزيد على شرح عقيدة التوحيد: عادل نويهض: مرجع سبق ذكره، ص 152- كما ذكره الحفناوي في الصفحة 567.

ونشير هنا إلى أن الباي محمد كبير اهتم بالمدرسة المحمدية التي هي من تشيده، وحرص على اختيار أنجب العلماء فعين عليها حين إتمامها أنة 1196هـ الشيخ محمد ابن عبد الله الجيلالي.[1]

إن هذه المدارس التي أشرنا إليها كانت مخصصة للتعليم وحسب، بمعنى أنها تزاول التعليم الابتدائي والثانوي والعالي، وكانت هذه المدارس العلمية مصنفة إلى مدارس خاصة مهتمة بالعلوم الدينية لتحفيظها القرآن الكريم وتفسيره وشرح الحديث، وتعليم الفقه والتوحيد وعلوم المنطق والأصول، كمدرسة الخنقة التي تنتسب إلى مؤسسها أحمد بن ناصر واشتهرت بعلوم الفقه والحديث وكانت على مستوى الجامعات. وهناك مدارس خاصة بفروع العلوم الطبيعية والتجريبية كعلم الفلك والحساب والطب وعلم صيدلية الأعشاب وغيرها وهناك مدارس أخرى في العلوم واللغة والأدب والنحو والصرف والعروض والبلاغة القوافي وقواعد الإنشاء ...[2]

كما امتازت هذه الأخيرة بنظام خاص حيث تقوم بكل ما يحتاجه الطالب والأستاذ من ضروريات وتحدد مدة الدراسة ثم السيرة التي تشترط في الطلبة كالمواظبة على الدروس، وإن لم تكن هناك إمتحانات إلا أن الأساتذة كانوا يجيزون طلبتهم في مختلف الفنون. وهذه الإجازات تختلف حسب استعدادات الطالب وتحصيه، فهناك نوع من الإيجاز ما هو عبارة عن شهادة تعطي لحامليها على أنه حضر الدرس في المدة التي حضرها والفنون التي قرأها، أما بالنسبة لنبغاء الطلبة فتعطى لهم الإجازات يأذن لهم فيها الأساتذة بالتدريس ورواية الحديث، ومن مميزات الإجازات أنها توضع فيها توصيات مثل قول المجيز:" أتركوا اليأس مما في أيدي الناس تعيشوا أعزه" أو كقوله: " إجازة مطلقة عامة بشرط المقرر وقيدها المعتبر وهو للصدق والأمانة والتحدي وأن يقول فيما لا يدري لا أدري مؤمنا له يرفع الهمة، وحفظ الحرمة والعمل بالعلم فإنه يستجلب النور وآلفهم."[3]

أما المركز الأخير فهي المكتبات العامة والخاصة، وهي التي كانت تجمع أشتات المخطوطات في مختلف فنون الوقت، والمكتبات العامة كانت وفقا على المساجد والزوايا والمدارس، وكانت هذه موزعة على القطر الجزائري حب أهمية المكان ومن حيث العلوم المدرسة، ولا سيما في المدن الجزائر العاصمة وقسنطينة، وتلمسان وبجاية.

وكان الأهالي الجزائريين شديدي الاهتمام بالكتب وخزانتها، وتأليفها واقتنائها، حتى وصلت الخزائن بها إلى درجة الشهرة، ونجد ذلك جليا في وصف الرحالة الذين زاروا البلاد، منهم ابن زاكور

---

(5)- المهدي بوعبدلي: الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني، ص (39، 40، 41) .

(1)- المهدي بوعبدلي: مراكز الثقافة ومخازن الكتب، ص 93.

(2)- أحمد مريوش وآخرون: مرج سبق ذكره، ص 17.

(3)- المهدي بوعبدلي: مراكز الثقافة وخزائن الكتاب، ص(95، 96).

الفاسي، عبد الرحمن الجامعي والزياني الذي اطلع بنفسه عندما زار تلمسان وأقام بها ووجد بها عدة كتب لمشارقه ومغاربة، وذكر مؤلفات لبعض المؤلفين الجزائريين لكنها ضاعت في معظمها، وتعود أصول هذه الكتب إلى العهود السابقة، خاصة الزيانيين الذي استفادوا من هجرات الأندلسيين وتشجيعهم للعلوم مما زاد في إثراء مكاتبهم كمكتبة أبو حمو موسى الثاني، واشتهرت عدة مكتبات سواء منها التابعة للملوك أو الحكام أو العلماء أو التي تكون وقفا على المؤسسات العامة والدينية.[1]

ولقد أكدت إحصاءات المؤرخين والباحثين الفرنسيين الذين اندهشوا من كثرة المخطوطات وجمعها في المدن، فمثلا كانت مكتبة الفكون بقسنطينة تمتلك مكتبة خاصة بها والتي قال عنها فيرو أنها كانت غنية بالكتب الخاصة للجزائر وغيرها من البلدان الإسلامية المجاورة، وقد برهن بذلك وعلى وجود الكتب بالجزائر وتذوق أهلها للفنون والعلوم رغم عدم عناية العثمانيين بها[2]،

وهذا دليل على أن العلوم والفنون كانت سائد، ومن يمتلك خزائن الكتب المتنوعة فهو يمتلك ثقافة، وأكيد كان ليؤثر فيمن حوله، ودليل ذلك أن قسنطينة كانت حاضرة علمية طوال العهد العثماني في البلاد.

واشتهرت في مدينة الجزائر مكتبة الجامع الأعظم المالكي، والتي هي شبه خاصة، وخاصة في عهد مفتيها سعيد قدور والتي اشتراها من ربع أحباس المسجد ومن بينها كتاب صحيح البخاري، وشرح الإمام العيني لصحيح البخاري وهذه النسخة كان يمتلكها محمد علي الخروبي.[3] كما اشتهرت خزائن الباي محمد مصطفى بن زرفة* صاحب الرحلة القمرية في الأخبار المحمدية والذي أخذ عن مكتبة محمد بن عثمان باشا. واشتهرت مكتبة أبو راس بمعسكر والتي وصفها في رحلته، ثم اشتهرت مكتبة أحد الخواص بغليزان وهي مكتبة عبد القادر بن بسط البرذعي، وقد أسس هذه الخزانة وشحنها بأمهات الكتب رغم تواجدها في بادية، واحتفظ بمدونة نفيسة منها كتاب" الدور المكنونة في نوازل مازونة" لأدبي زكريا بن موسى المغيلي* وعليها تقريض أحمد بن يحي الونشريسي.[4]

---

(1)- المهدي بوعبدلي: مراكز الثقافة وخزائن الكتب، ص 102، 1.103

(2)- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الثقافي، ج1، ص 286، 2.287

(3)-المهدي: مراكز الثقافة وخزائن الكتب، ص 3.3

* بن زرفة: هو محمد المصطفى بن بد الرحمن المعروف بإبن زرفة، باحث ناظم له اشتغال بالتاريخ، تولى الكتابة للباي محمد عثمان والقضاء من آثاره: الاكتفاء في عجم جوائز الأمراء الخلفاء، والرحلة القمرية إلى أرخ بها لفتح وهران 1800، أنظر عادل نوهيض: معجم أعم الجزائر من صدر الاسلام إلى العصر الحاضر، لبنان، مؤسسة نويهض الثقافية، ط2، 1980، ص 158.

* المغيلي: هو يحي بن موسى بن عيسى بن يحي أبي زكريا المغيلي المازوني، فقيه، قاضي من أعيان المالكية، نشأ في زاوية مازونة، له مؤلفات عدة، منها " الدرء الكنونة في نوازل مازونة" بالإضافة إلى كتاب جمع فيه فتوى علماء المغرب الإسلامي، معجم إعلام الجزائر، ص 218، وذكره الحفناوي في كتاب تعريف الخلف، في الصفحة، 18.

* الونشريسي: هو عبد الواحد بن أحمد بن يحي الونشريسي أبو أحمد فقيه مالكي نحوي أديب من قضاة المالكية له عدة مؤلفات منها نظم قواعد أبيه ،إيضاح المسالك على قواعد الإمام بن مالك .أنظر ابن مريم التلمساني: البستان في ذكر أولياء علماء تلمسان، إعتنى به و راجعه محمد بن أبي شنب، الجزائر المطبقة الثعالبية، 1908،ص 345 .

بالإضافة إلى مكاتب أخرى ببجاية وغيرها، وحتى في الصحراء الجزائرية التي ذكرها المؤرخ العياشي، وأهمها مكتبة التي أنشأها الشيخ محمد بن إسماعيل* وتحتوي على 1500 كتاب، ومكتبة بوهران تابعة لزاوية ابراهيم التازي تحتوي على خزائن مملوءة بالكتب العلمية والآلات الجهادية.

ولقد كان التعليم في البلاد وفق منهاج معين، حيث يبدأ الطفل الجزائري تعليمه الأول من سنة الخامسة أو السادسة، أين يتجه إلى الكتاب ليتعلم قواعد الدين ويحفظ القرآن، وتنقسم العملية التعليمية إلى قسمين فترة صباحية يراجع ما تعلمه الطفل في الحصص السابقة وكتابة الآيات الجديدة في اللوح الخشبي، أما في الفترة المسائية يتجه إلى إتقان الحروف والحساب وبعض الدروس الفقهية ويحفظ المتون.[1]

أما التعليم الثانوي فكان مقره المدارس والزوايا، ونفقة التعليم على ربع الأحباس عكس المرحلة الأولى التي تكون على الأولياء وكان يبلغ عدد المتعلمين حوالي الألفين والثلاثة آلاف، أما التعليم العالي وان لم يشمل في مواده على العلوم العصرية، فإن مواده في العلوم الدينية كانت قوية، وهؤلاء الواصلين إلى هذه المرحلة هم الذين يشكلون نخبة المثقفة والرأي العام بالبلاد.[2]

ولم تكن عملية الانتقال من مرحلة إلى أخرى واضحة العالم كما لاحظنا فلا يبين على أي أسس وقواعد معينة في عملية التعليمية والملاحظة حسب أبو القاسم سعد الله، أن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والمكانية (مدينة، ريف) أن صح التعبير هي التي تتحكم في هذا التدرج بالإضافة إلى الشروط التي تفرضها المؤسسة التربوية.[3]

ومنهج التدريس المتعارف عليه في ذلك الوقت هو الحلقة أين يدور الطلبة على شكل حلقة حول مدرسهم أو شيخهم الذي يلقنهم بالطريقة التقليدية، وتكون هذه العملية متبوعة بمجموعة من الأسئلة يطرحها الطلبة بعد انتهاء الدرس، وهذا النظام كان ساري في كل المؤسسات، ولعلى أكثرها تنظيما هي الزاوية، واخترنا زاوية من مناطق القبائل كنموذج حول مقراتها لكونها أكثر المناطق من حيث عدد الزوايا، وبلغت مكانة الجوامع الإسلامية في مقرراتها . كان الطلبة داخل الزوايا ينظمون إلى مجموعتين وكل مجموعة تقسم إلى ثلاثة:

(1)- مهدي بوعبدلي: مراكز الثقافة والجزائر والكتب، ص(104، 105).
(2)-أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص (339، 390).
(3)-سعيدوني والمهدي: الجزائر في التاريخ، ج4، العهد العثماني، 145.
(4)- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ص 342.

المجموعة الأولى: فيها فئة المبتدئين، فئة المتوسطين، فئة المنتهين، والمبتدئ هو الذي يختم سورة البقرة، أما المتوسط فهو الذي ختم سورة البقرة وشرع في الإعادة، والمنتهي يكون قد ختم القرآن كله، ولم يبقى له إلا الرواية والتجويد.[1] أما بالنسبة للطلبة الذين أنهو المدة المقررة، ولم يستوفوه أغراضهم فأمرهم في تمديد المدة موقوف على نظر المقدم، بالإضافة إلى حسن سيرته سلوكه التي قد تمكنه من إتمام دراسته.أما المجموعة الثانية تتكون أيضاً من خلال فئات وهي: فئة الأجرومية وابن عاشر، فئة القطر والرسالة، فئة الألفية والرسالات ثم الشيخ خليل، وهذا ببساطة نموذج لمعهد او زاوية بمنطقة الزواوة.[2]

ولقد ذكر ابن زاكور في رحلته الكتب التي كانت تدرس في أيامه بالعاصمة والتي عرفت رواجا كبيرا وهي: الفقيه العراقي (في المصطلح)، جملة من كتب السير، صحيح البخاري، مختصر خليل (الفقه)، نظم ابن عاصم (في الأحكام)، شفاء القاضي عياض ، بردة البوصري ،عقائد السنوسي، خزرجية الشريف الغرناطي، لامية ابن مالك (في الصرف)، جمع الجوامع لليبتي، وشروح المحلي وولي الدين العراقي والكورافي، مختصر ابن الحاجب، وتلخيص المفتاح (في البيبان)، والجمل للخونجي، ونظم لعبد الرحمان الأخضري، ونظم أبي إسحاق التلمساني (في الفرائض)، و(السلم المرونق) لعبد الرحمان بن محمد الصغير.[3] وهذه أمهات الكتاب في الفنون العقلية والآداب والمنطق والى غير غيرها من الفنون التي كانت ضروريا وفنون مطلوبة لدى آهل العلم.

ولقد كان العلماء ينبهون الطلبة إلى المواد التي يجب أن يبدؤوا بها، وطرق التصرف والآداب في طلب العلم، وكيفية اختيار الأساتذة، فمثلا: يستحسن للطالب أن يقدم دراسته علم التوحيد ليعرف بها ربه، ثم يستعين بمختصرا في العربية ليفهم الالفاظ والمصطلحات، ثم مختصرا في الفقه ليبني عليه أسس فروعه، ثم مختصرا في علوم الحديث، وبعدها هذه المختصرات يذهب بعدها إلى كشف النقاب ويتجه إلى التفرغ في العلوم، وذلك بعد أن حصل له التصرف والتيقن حتى لا يتيه في الفروع والقضايا الفقهية ومنها يمكن للطالب أن يندرج في أمهات الكتب. وفي الكتب نصح العلماء الابتعاد عن الكتب التي تحمل القضايا الكثيرة الاختلاف فيها، بل يبدأ في التدرج، فيدرس كتابا أو بمعنى فنا- بفن وأن يتم الكتب حتى النهاية، ولا يتركها في منتصفها حتى لا يتشوق وليصل بإتمامها إلى الفلاح.

وأشار العلماء ونصحوا الطلبة إلى آداب التعامل مع شيوخه وكيفية اختياره فالطالب يتريث شهرين ويتأمل حتى يختار له أستاذا فيكون من المشايخ الأعلام والأروع والأمن، وإذا حصل وجالس

(1)- محمد سي يوسف: مرجع سبق ذكره، ص 104.

(2) محمد يوسف: مرجع سبق ذكره، ص 104.

(3)- مولاي بلحميسي: مرجع سبق ذكره، ص 33.

أستاذه فعليه أن يتقن آداب السؤال والجدال والمجالسة، وذلك ليحصل على رضا أستاذه ويتجنب سخطه.[1]

وبالعموم فإن المقام لا يكفي للتوسع في هذه المؤسسات العلمية، والتي كما لاحظنا في تعريفاتها تتشابه في الوظائف والركائز التعليمية، فهي ترتكز على تحفيظ القرآن بالطرق التقليدية (حلقات) وتكاد تجمع على موادها ومناهجها المقررة للتدريس أما صلب اختلافها فهو يكون على مستوى الحجم التعليمي الذي تقدمه و عدد الطلبة الذين يؤوون إليها، ومدة العملية التعليمية وأهم نقطة تتحكم في كل هذه النقاط هي النظام الداخلي لها.وعملت هذه المؤسسات التعليمية من مدارس وزوايا منها ما كان موجودا بالمدن أو الأرياف على نشر المعرفة والثقافة، وإزالة الأمية من الأواسط الشعبية مستندة على مناهج وأسس دينية مغربية أصلية شددت بها الروابط الروحية بين فئات المجتمع، وهذا ما أثار انتباه الفرنسيين عند احتلالهم الجزائر 1830/ 1246هـ، فكتبوا في تقاريرهم " أن عدد الجزائريين الذين كانوا يحسنون القراءة والكتابة يفوق ما كان موجودا بالجيش الفرنسي التي كانت نسبة الأمية به 49 %". [2]

2/- الحياة الأدبية والفقهية:

إن جل المؤسسات التعليمية السالفة الذكر بمقرراتها ومناهجها ومختلف الكتب التي كانت تضمها المكتبات العامة والخاصة كان نتاجها كثرة المخرجات العلمية في العهد العثماني والتي شملت مختلف العلوم والفنون وبعض النظر عن قيمة هذا المنتوج الثقافي وآراء المؤرخين حوله إلا أنه يسمح لنا بإلقاء نظرة حول واقع و حركية الجانب الثقافي بالبلاد ومدى الإسهام الثقافي للعقل الجزائري أنذلك.

ولأن العلوم الدينية كانت السائدة والأكثر انتشارا في المجتمع الجزائري نظرا إلى أن مركز التعليم كان مقرها مؤسسات دينية أكثر منها علمانية (المدرسة)، والتي كانت تقتصر في المداس التي أسلفنا ذكرها، وبالتالي كان نصيب العلوم الشرعية والفقهية وافرا على العلوم العقلية والمنطقية. وأكد ذلك سعد الله في دراسته حيث قال: حتى أنه يمكن القول بأن أغلب إنتاج الجزائر خلال هذا العهد يكاد ينحصر في العلوم الشرعية والصوفية والمجال الأدبية..." ورغم سيطرة هذه العلوم على الفكر الجزائري، لكن ذلك –لم يفنى وجود علوم والمؤلفات في مجالات أخرى–، وذلك عائد إلى" كون القرآن والحديث كان المنبع الذي يستمد منه الجزائريون كل ألوانهم وتفكيرهم وأنماط حياتهم."[3] رغم

(1)– جمال قنان: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث، الجزائر،الرائد للكتاب، 2010، ص(29، 30).

(2)– نصر الدين سعيدوني: ولايات المغرب العثمانية، ص 144.

(3)– أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 9.

ما ميز النشاط العلمي الفكري في المغرب الأوسط من انتشار للتصوف وغياب تشجيع العثمانيين للحركة

العلمية، وعقدهم للمناظرات العلمية بين العلماء على حسب المؤرخين، إلا أن العهد العثماني أنجب تأليفا أدبيا وفنيا وعلميا على مستوى طيب ومرموق نسبيا على حد قول الدكتور سعد الله[1]، فقد اعتنى الجزائريون بالدراسات الأدبية وأولوها اهتمامات كثيرة وظهرت في مجال الأدب مؤلفات عديدة، غير أن الملاحظ عليها هو أنها كانت مقصورة أو محصورة في مجال ديني وأكثرها تفتقر إلى الإبداع الأدبي على حسب ما أورده المؤلفين وإلى المستوى الأدبي العالي أو الذواق.[2]

ومع ذلك ترك الجزائريون إنتاجا أدبيا لا بأس به في ميادين الأدب حيث أن علوم اللغة ظهرت فيها مدارس أهمها كانت مدرسة الزواوة و مدرسة الخنقة التي كانت رائدة في مجال النحو وعلوم اللغة فاهتمام الجزائريين بهذا المجال كان كبيرا، حيث أن حفظ المتون والشروح وهي ميزة اشتهر بها علماء الجزائر، وقد اشتهر بعض الجزائريين بالدراسات النحوية ومن هؤلاء يحي الشاوي* وعبد الكريم الفكون*، ومحمد ابن راشد الزواوي*، وغيرهم وتركوا مؤلفات في هذا الميدان ، ولعلى ما تركه الفكون دليل ذلك مثل" فتح الهادي بشرح المجرادي" هذا في علم اللغة والنحو.[3]

ولاحظ المؤرخون على مؤلفات ابن الفكون في علم النحو والصرف أنه كتاباته تميزت عن كتابات الأخر، فهو كان مؤلفا ماهر في هذا الميدان، ورافضا طريقة التقليدية في التأليف وقد ذكر ذلك في تأليفه منشور الهداية أين انتقد فيه أسلوب الكتابة عند أهل زمانه من العلماء، وعاب عليهم التقليد و الابتعاد عن التجديد، وذلك في رده على صديقة أحمد المقري، وغاب عليه الحفظ والتقليد، فقال"... أن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما هو ما يظهر عند الحاجة إليه في الفتوى والدراسة" إلى أن يقول : ولله دره فلقد أوضح في المقال وأبدع، فهذه صفة الحال لا ترى إلا من يبادر/ قال فلان قال فلان" [4]، وهذا

---

(1)- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزار الثقافي، ج1، ص 195.

(2)- ابن ميمون: مصدر سبق ذكره، ص 62.

* يحي الشاوي (1621- 1685): هو يحي بن محمد بن عبد الله بن عيسى أبو زعر يا الشاوي، عالم بالنحو، مفسر من فقهاء المالكية، ولد بالجزائر وله تأليفات عدة في النحو والشعر، وشروح أدبية وغيرها منها " الامية" منظومة في الإعراب، رسالة في أصول النحو، معجم أعلام، ص 186.

*هو عبد الكريم الفكون بن محمد بن عبد الكريم الفكون التميمي القسنطيني، أصله من قبيلة تميم العربية، ولد ونشأ بقسنطينة سنة 1580، من أسرة علمية عريقة، صاحب كتاب منشور الهداية فيمن ادعى العلم والولاية، فنظر فيه إلى أوضاع علماء عصره وأصنافهم، منشور الهداية، ص 87.

* قال عنه صاحب معجم العلام: أديب نحوي، محدث جمع بين علم الظاهر والباطن، تولى وظائف سياسية دينية له عدة مؤفات في شتى الفنون، معجم أعلام، ص 245، ذكره الحفناوي في تعريف السلف، ص 162، وما بعدها

(3)- أبو قاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص(157، 185، 160.)

(4)- ابن الفكون: مصدر سابق ذكره، ص 233

يوضح حالة التأليف- بصفة عامة- أن صح التعبير يعود فيها المؤلفون إلى التقليد والحفظ، ويتجنبون الإبداع والنقد، خوفا أو لعدم مقدرة؟

أما في علم العروض من البلاغة فقد اشتهرت أعمال عبد الرحمان الأخضري * فقد نظم هذا الأخير (جواهر المكنون) في علم البيان والمعاني في شرحه ولم ينته منه فكان ذلك حافزا لغيره من العلماء الذين اهتموا بما ألفه منهم ابن الفكون، وأحمد بن المبارك العطار القسنطيني* في شرحه عمله المسمى " نزهة العيون".[1]

وكما كثرت الشروحات الأدبية في العهد العثمانين فظهر لنا شرح " العقيقة" لكل من أبو راس الناصري، وأحمد بن سحنون الراشدي*، وشرح " لامية العجم" لمحمد بن أحمد بن قاسم البوني.[2]

وبالعموم فالحياة الأدبية لها مجالات عديدة لا يسعنا ذكرها كلها ولكن المجمع على وصفها أنها تقليدية جوفاء نقص عليها الإبداع والتجديد وكثر عليها عبارات السجع والديباجة، وطول الجمل وتعثرها بالاعتراضات والاستطراد، وهي حسب أبو القاسم سعد الله تعكس الحياة الثقافية التي سادت في ذلك العصر والتي غلبها عليها أسلوب مأثور بالعبادات الدينية والفقهية.[3] ولعلنا نتبنى رأي أبو القاسم سعد الله في دراساته عن الأدب الجزائري حيث أن ما أنتجه الجزائريون كان وليد نشاطهم وجهودهم دون إعانة من الحكام، وأدب الجزائري كان على مستوى راقي نسبيا شعرا ونثرا، تناولوا فيه المسائل التي طرحت في عصرهم أنذلك، وغلب الشعر السياسي على بقية أنواع الشعر الأخرى باستثناء الشعر الديني، وذلك لاستمرار الجهاد بين الجزائر وأعدائها المسيحيين وشاع النثر الفني في الرسائل والمقامات والإجازات، وعان الأدب الجزائري من صعوبات حال دون تقدمهم خاصة أن

---

*قال عنه الحفناوي: عالم زاهد وورع ذو قدم راسخ في المعقول المنقول، له تأليف عدة منها " الجواهر المكنون في الثلاثة فنون المعاني والبياني والبديع "، ص 62، وذكره معجم أعلام الجزائر، ص 14-15، أنه عبد الرحمان بن محمد الصغير بن محمد ابن عامر الاخضري (1512م- 1546م) من أهل بسكرة، وكان أديبا ومنطقي، له عدة ومؤلفات نالت إعجاب علماء عصره.

* أحمد بن المبارك ابو العباس القسنطيني(1849): فقيه مالكي، باحث ناظم، خطيب له عدة نظم، مفتى بحاضرة قسنطينة، وخطيب بالجامع امالكي له حاشيته على شروح الاخضري وكتب أخرى منها" كتاب في شمائل الرسول ومعجزاته" وله عدة قصائد في مدح الرسول، 260

(1)- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 107

* محمد بن قاسم البوني (1653- 1762): هو أحمد بن قاسم بن محمد بن ساسي التميمي البوني، فقيه مالكي عالم بالحديث، له مؤلفات عدة منها: فتح الإغلاق على وجوده مسائل خليل بن إسحاق وغيرها، ألف في فنون عدة، الشعر النحو، الطب النحو، اللغة ..الخ، معجم الأعلام، ص 49، 50، ذكره الحفناوي في الصفحة، 515.

(2)- نفسه، ص 174.

(3-) نفسه، ص 182.

أصحابه لم يكونوا مستقرين في البلاد، بسبب غياب مؤسسة تعليم عالي كالجامعات الإسلامية، وهو ما أثر على وحدة أسلوب الأدب الجزائري الذي ظل متأثرا بالأساليب والتوجيهات من الخارج بالتحديد من المعاهد الإسلامية الأخرى سواء المشرق أو بمعاهد المغرب.[1] ويعد كلا من أحمد المقري* أديب القرن 11هـ/12م وأحمد بن عمار* من أدباء القرن 18 م من أشهر أدباء الجزائر تميزوا بغزارة الإنتاج والتأثير على المعاصرين.[2]

أما في المجالات الفقهية، فقد كانت التأليف فيما كثيرة، كثرة مدرسيها وأساتذتها، وعرفت اهتماما من طرف العلماء والأدباء على اختلاف اتجاهاتهم، سواء ذات الاتجاه المالكي أو الفقه المالكي، إضافة إلى الفقه الحنفي الذي حل بالبلاد مع مجيء الأتراك واستقرارهم بها، والاتجاه الثالث هو الفقه الإباضي غير أن جل المؤلفات كانت تنصب على المذهب المالكي، ويعد هذا الموضوع طبيعيا نظرا لأن غالبية المجتمع كانت على الفقه أو المذهب المالكي، ولم يمنع ذلك وجود من ألف وأفت في المذهب الحنفي.

ونظرا لضخامة الإنتاج في مجال الدراسات الفقهية فقد تعذر على المؤرخين المعاصرين محاولة الإلمام بها فكما هو معروف مجالاته واسعة ومتشعبة، ومتفرغة(أصول- فرائض – فتاوى- أحكام- وغيرها من العبادات والمعاملات.[3] واخترنا دراسة أبو القاسم سعد الله كمرجع لإعطاء صورة كاملة عن الحياة الفقهية، اذ أن حال الفقه، حسب هذا الأخير لم تختلف على التقليد الذي صاحب الثقافة أو الإنتاج والتأليف الجزائري والإسلامي. وحسب هذا الأخير فإن أساس الدراسات الفقهية كان مختصر خليل تم مختصر ابن الحاجب والرسالة، وذكر أبو القاسم أن رغم الجمود والتقليدي في التفاسير التي أنتجها الجزائريون إلا أن ظهرت محاولات يمكن وصفها بالتحررية

---

(1)_ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 195.

* هو أحمد بن محمد بن يحي بن عبد الرحمن بن أبي عيسى أبو العباس المقري التلمساني: مؤرخ أديب حافظ، كان آية في علم التفسير ولد بتلمسان ونشأ بها سنة: 1588م- 1631، إنتقل بين جامعات الاسلامية في القروين وفاس، والقاهرة، وتقلد المناصب العليا بها، وأجزره علماءهم من أثاره، " نفخ الطيب من غصن الاندلس الرطيب" بأجزاءه الثمانية، وله عدة مؤلفات آخرى نالت شهرة مكانة لدى العلماء والأدباء، ص 309، 310، 311، عادل نهويض معجم الاعلام، ذكره الحفناوي في كتابه تعريف الخلق، ص 44 وما بعدها.

* أحمد بن عمار الجزائري: ذكره الحفناوي في كتابه تعريف الخلف: هو العلامة للمحقق والفهامة المدقق أبو العباس سيدي أحمد بن عمار، مفتي المالكية بالجزائر، نابغة في عصره، بديهة في البيان والمعاني، من أشهر أعماله الأدبية التي زاحمت المشارق والمغاربة " نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب" وله عدة مؤلفات في مختلف الفنون، البلاغة، النحو، الشعر ...الخ، الحفناوي، ص 84 وما بعدها، ج2.

(2)- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 212.

(3)_ نفسه، ص(65_66).

في تناول موضوعاتها والإبداء عن آرائها سواء ما تعلق بالقضايا العصر، أو القضايا الاجتماعية، أو الفقهية بصفة عامة.[1]

وظهرت مدارس متخصصة بالفقه المالكي كانت على طليعتها مدرسة تلمسان خاصة منها مازونة، وضمت هذه المدينة أسر علمية لها مؤلفات الريادة في هذا المجال منها عائلة الونشريسي، والمقري، والعقابي والمغيلي. وأهم المؤلفات بلغت الريادة في مجال الدراسات الفقهية، لدينا مؤلفات الونشريسي خاصة منها" النور المقتبس من قواعد مذهب مالك بن أنس" وشر مختصر ابن الحاجب في أربعة مجلدات، وشرحه المطول على الرسالة، ولم يبلغ ابنه عبد الواحد الونشريسي* مقام أبيه لاهتمامه وميوله الأدبية. ولدينا أيضاً تأليف محمد بن عبد الكريم المغيلي* خاصة شرحه لمختصر خليل وحاشيته عليها أيضاً وشرح آخر على يبوع الأجال من ابن الحاجب، ولعلى صاحب كتاب" ياقوتة الحواشي على شرح الامام الفراشي" لمحمد بن عبد الرحمن بن الحاج البدوي التلمساني* في أربعة أجزاء اكبر من خدم مختصر خليل بالإضافة إلى حاشية عليها.[2]

وهذا بالإضافة إلى بعض المؤلفات الأخرى التي برزت في مدارس ومدن أخرى كمدينة العاصمة التي تصدر بها سعيد قدور والذي وضع شرحا على خطبة المختصر لخليل، وهذا بالإضافة إلى مدن قسنطينة وبجاية وبسكرة وعنابة، والتي عرف بها الفقه نشاطا في مدارسها كحواشي ابن الفكون[3] بقسنطينة، ومختصر الأخضري في العبادات والذي شرحه عبد اللطيف المسبح واهتمامات الشيخ موسى الفكرين بالتوضيح لابن الحاجب.

---

(1)- أبو القاسم سعد الله، ص 65.

*الونشريسي(ت 1549): هو عبد الواحد بن أحمد بن يحي الونشريسي أبو محمد، فقيه مالكي نحوي أديب، من القضاة أخذ من أبيه وكبار علماء عصره، فر من تلمسان إلى فاسا بها نشأ وتولى القضاة بعد عودته على تلمسان والإفتاء، له عدة نظم في مسال مختلفة منها: ما جعلها أبو زيد الكلاني، شرح ابن الحاجب الفرعي في أربعة أسفار: عادل نويهض، مرجع سبق ذكره، ص 345

*المغيلي: محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي (ت 1540) التلمساني أبو عبد الله، فقيه مالكي مفسر، له عدة نظم، له عدة مؤلفات في الفقه توفي بالتوات من بين مؤلفاته " البدر المنير في علوم التفسير، مصباح الأرواح في أصول الفلاح بالإضافة إلى شروحه، عادل نويهض، ص 308، ذكره الحفناوي، ج1، ص 166.

*هو محمد بن عبد الرحمن التلمساني: من علماء القرن 18م، قاضي من كبار الفقهاء بتلمسان وعلمائها، نشأ وتعلم بها أول من تولى مشيخه الأزهر الشريف، له عدة مؤلفات بالفقه، منها ما اشتهر به بالاضافة إلى حاشيته في شرح الكثير على متن خليل عادل نويهض: مرجع سبق ذكره، ص 78.

(2)- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص (76، 68، 69.)

(3)- نفسه، ص 72.

أما في الفقه الإباضي فتعد مؤلفات عبد لعزيز الثميني* و التي بلغت الريادة ويقاس عمله بعمل أحمد الونشريسي في الفقه المالكي، وعمله هذا ألفه في ثمانية عشر جزءا، كانت وموارد النيل وشفاء العليل بالإضافة إلى" التكميل لها أخل به كتاب النيل" و " الروض البسام في رياض الأحكام" بالإضافة إلى مؤلفات أخرى له في الحديث والمنطق والتوحيد والاجتماع ومجموعات الفتاوى، بالإضافة إلى الشروح والحواشي التي قدمها على مؤلفاته، فهو كتب على أسلوب المعاصرين له من علماء ليسهل فهم القضايا الفقهية والمذهب الإباضي فإنه يعد مرجعا أساسيا في التدريس والاستيعاب.[1]

أما في المذهب الحنفي فإن أسرة العنابي تعد أكثر من ساهم في تأليف للمذهب الحنفي، وبالعموم لم يظهر علماء ألفوا أعمالا هامة في هذا المجال باستثناء هذه الأسرة وعلى رأسهم تأليف محمد بن محمود العنابي* المعروف بشرح الدر المختار.

وهذا بالإضافة إلى مؤلفات الجزائريين في الفتاوى والفرائض، وقد نسب إلى محمد بن العنابي كثرة الفتاوى رغم تفرقها وهذا إلى جانب مؤلفات أخرى في الوقوف والفرائض وغيرها من القضايا وجوانب الدين المختلفة، وكما أشرنا فإنه يتعذر الإلمام بها، فكتفينا بإعطاء صورة عامة عن الموضوع.[2]

وبالعموم فإن المتعارف عليه أن الحياة الأدبية الفقهية سيطرت عليها طابعها الدين والاهتمام بالقضايا الدينية بأسلوب التقليد، قلة التجديد رغم ظهور مؤلفين علماء دعوا إلى التحرر من الحفظ والتقليد، وتعد اهتمامات الجزائريين في هذا المجال على مستوى حسن ومقبول و فيما يخص الدراسات الفقهية.

3/- الحياة الروحية والدينية:

ذكرنا فيما سبق في الجانب الاجتماعي بالإيالة الجزائرية العثمانية أن الجزائيين بتعدد جنسياتهم ومذاهبهم، كانوا متمسكين بديانتهم، فكل فئة متمسكة بدينها ومذهبها، للجزائريين الأهالي المذهب المالكي وللأتراك واعيان الحواضر المذهب الحنفي، وبالإضافة إلى الديانة اليهودية والديانة المسيحية.والمتعارف عليه في العهد العثماني في جانبه الروحي الديني هو وبروز ظاهرتين أولهما: الطرقية والمرابطية، حيث سيطرت هذه الظاهرتان على الجانب الروحي والعقائدي لسكان الايالة.

1-أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2 ، ص(74، 75).

* هو محمد بن محمود بن حسين بن محمد الشهير العنابي (1775- 1850): من فقهاء الحنفية، قاض، باحث، مصلح اجتماعي وسياسي والعالم الإسلامي، نسبه في عنابة المولد والمنشأ كانت أحداث سياسية كثة من القصف الانجليزي إلى الاحتلال الفرنسي والذي هاجر بعدها على الاسكندرية، وتولى بها الفتوى، له عدة أثار من بينها " السعي المحمود في نظام الجنود وغيرها ..، معجم أعلام، ص 245.

2- أبو القاسم سعد الله: نفسه، ص 79.

والمرابطون طائفة دينية، إكتسب رجالها سلطة دينية بين الناس ذلك عن طريق كراماتهم أو انتسابهم لأسلافهم، ويمارسون في الغالب الشعائر الدينية أو التعليم الإسلامي في مؤسسات دينية تحمل اسم أحد أسلافهم(الزاوية والقمة والحج والقبة)...[1]

وتعتبر الزاوية مقر المرابطين، فالزاوية في بداية ظهورها كانت مرادفة لكلمة رابطة وهي المكان الذي ينعزل فيه الولي ويعيش فيه بين تلامذته ثم تطورت فأصبحت وظيفتها كمكان للعبادة محلا لإيواء المسافرين وإطعامهم ثم انتقلت إلى الميدان الثقافي، هذا بغض النظر عن دورها الحربي في القرن 16م والذي عرف اضطرابات سياسيا بسبب الاحتلال الإسباني وضياع الأندلس فحاولت الزوايا إحياء الوظيفة الحربية للراباطات القديمة في الجزائر، لكن ظهور الأتراك وانتصاراتهم وإجلائهم للأسبان أعفاهم عن مواصلة حركتهم هذه، فتمركز نشاطاتهم على الجانب الديني والعلمي الشائع أن الزاوية تبنى حين يموت المرابط ذلك أن المرابط يدفن تحت قبة يلحق بها بالغالب مصلى وأحيانا سكنا للطلبة ويمكن أن تكون ذات تأسيس خاص مثل زاوية الفجيجي* أو عن طريق الطلبة الذين يقيمونها لمرابطهم في حياته أو بعد مماته.[2]

ولقد أثر وجود المرابطين على المجتمع بشكل سلبي وإيجابي لقد كان لتواجد هؤلاء بالبلاد الظهور الوطنية والوحدة القومية حيث أن المرابطة الحاكم نحو لا تتحدى حدود قليلة في اغلب الأحيان، وبذلك يبقى المرابط حبيس الانتماء القبلي لا يعرف عن الوطنية شيئا سوى القبيلة و ولائه لمرابطه.

و الجانب السلبي في موضوعهم هو انتشار الخرافات والبدع، وهذا ما أثر على العقول الساذجة للناس وبالتالي أثرت على المستوى الفكري للأفراد وسبب ضعف الثقافة وانقيادها هذا بالإضافة إلى النفوذ الروحي والسياسي الذي كبسوه والمدعم من طرف السلطة العثمانية، فزاد ذلك في ثرائهم وبروز برجوازيتهم، وتعاونهم حتى مع الاستعمار الفرنسي للحفاظ على نفوذهم.[3]

أما عن الطرق الصوفية فإن الرجوع إلى أصل نشأتها يستغرق منا صفحات كثيرة، فغايتنا من الإشارة إلى الطرق الصوفية هو إبراز دورها في المجتمع الجزائري في العهد العثماني وفعاليته فيه سواء الإيجابية أم السلبية بدأت تظهر الطرق الصوفية في البلاد الجزائرية منذ بدايات القرن 16م وأخذت تنمو وتتسع حتى انتشرت على نطاق واسع في النصف الثاني من القرن 18م والربع الأول من

(1)- العيد مسعود: المابطون والطرق الحديثة، ص 8.

(2)_ نفسه، ص 6.

(3)- فيلاني مختار الطاهر: نشأة المرابطية والطرق الصوفية وأثرها في الجزائر من خلال العهد العثماني، الجزائر، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، 1986، ص 28.

القرن 19م، كما نشير إلى أن الجزائر قبل مجيء العثمانيين كانت تحت نفوذ الطريقة الشاذلية والقادرية.[1]

وقد احتضنت المجتمع الجزائري الكثير من الطرق الصوفية ويعد الشيخ أبا مدين شعيب شيخ مدينته بجاية الرئيس الأقدم للطرق الصوفية المنتشرة في البلاد، ومن أهم الطرق الصوفية التي عرفتها الجزائر في العهد العثماني نجد:

الطريقة القادرية: نسبة إلى عبد القادر الجيلالي، الطريقة الرحمانية نسبة إلى محمد بن عبد الرحمن الأزهري ببلاد الزواوة، الطريقة التيجانية نسبة إلى مؤسسها التيجاني بالغرب الجزائري، الطريقة الشاذلية نسبة إلى أبو الحسن علي ابن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي، والطريقة الدرقاوية نسبة الى الشيخ أبو درقاوي الشريف الاديسي، والطريقة السنوية نسبة إلى مؤسسها وفروع أخرى من الطرق.[2]

وإذا ما قارن بين الصوفية وطرقها وبين المرابطين سنجد أن لهما نقاط إختلاف وتباين، ونقاط تشابه ونبرز بذلك حتى سلبيتهما وإيجابيتهما.

فالمتعارف عليه أن كلا من المرابطين والطرق الصوفية لها مريدها هو في حد ذاته له أتباع يعلنون لهم الطاعة والولاء المطلق. استخدم كلا من الطرفين وسائل دينية وخرافية لمحاولة السيطرة على العقل الساذجة لأجل كسبهم كأتباع والسيطرة الروحية عليهم، ولذلك كثر الممارسات الخرافية والمعتقدات الزائفة التي وصلت في بعض الأحيان إلى حد البدعة في الدين وأصوله، وهذا المنحنى الذي سلكه كلا من المرابطين والطرقية من علم معرفة، فهم مضطلعون بالعلم اللدني ولا يمكن أن نحكم على جلها بالفساد وذلك أن بعضها إعتنق التصوف بمعناه الإيجابي، الزهد والصلاح والتقشف.

وأما عن نقاط الاختلاف بينهما هو أن الطرقية كان لها نظام إداري شبيه بنظام حكومي فلهم قوانين خاصة تسيرهم، وتحدد طبيعة علاقاتهم مع الداخل وخارج الزاوية، بالإضافة إلى الأذكار والأوردة التي يرتلها أتباعهم والمعونات التي تفرض عليها، وأساليب الدعوة التي تهدف بها إلى الانتشار خارج حدودها القبلية أو المكانية، فحين أن المرابطين عكس ذلك تماما، فهم لا يفرضون أي من هذه النقاط، الشيء الوحيد هو أن المرابط ينقل رئاسته الروحية في القبيلة إلى أولاده وذريته من فحين الطرقية تستغني عن ذلك، وتعطيه للأكثر كفاءة في ذلك المنصب فتواجدها بالقبيلة ليس بالصلة

(1)- فيلاني مختار الطاهر، مرجع سبق ذكره، ص 34.

(2)- حول الطرق الصوفية في العهد العثماني أنظر: حنفوق إسماعيل: دور الطرق الصوفية في منطقة الأوراس، 1844- 1931، رسالة مقدم لنيل شهادة ماجيستير في التاريخ لحديث والمعاصر، جامعة باتنة، 2011، ص 28 وما يليها.

وإنما عن طريق السيطرة الروحية وهذا هو صلب اختلافها. وفي هذه المقارنة إبراز لنقاط الإيجابية والسلبية لكل الطرفين ولكن ما يهما هو معرفة مساهمتهم في الحياة الثقافية.[1]

إن الوجه المشرق في حياة المرابطين والطرق الصوفية فهو مشاركتهم في الحركة التعليمية ولاسيما في الريف الجزائري، ذلك أن في تلك الفترة ازدحم الريف الجزائري بهذه الزوايا التي عملت على نشر التعليم والتكفل بالتلاميذ الذين يتعلمون فيها، وكذا العلماء الذين يتولون التدريس بها وتعتمد الزاوية في ذلك على الأراضي الموقوفة عليها وعلى أموال الهبات والزكاة[2]، وبالخصوص زوايا الطرق الصوفية التي لعبت دورا كبيرا ونشاطا مستمر في البلاد، سواء من الناحية الاجتماعية أين حافظت على تمسك المجتمع وبنيته القبيلة وفضت النزاعات وحافظت على تمسكه ونشرت الأمن وأطعمت المعوزين و علمت الناس، وحافظت في جانبها الروحي الديني على الطابع الإسلامي للمجتمع الجزائري وعلمته تعاليم دينه، ووقفت في وجه التنصير وكانت ملجأ للخائفين والفارين من النظام الضريبي للعثمانيين حين تزداد وطأة الحكام على الشعب، بالإضافة إلى دورها السياسي حيث تتحول الزوايا إلى قاعدة حربية للدفاع عن الوطن في وجه العدو وتشد الصفوف وتجند الأهالي وتعلي كلمة الجهاد ضد الأعداء وهي النقطة التي استغلها العثمانيين حين قدومهم إلى البلاد، والذين كانوا أيضاً متأثرين بعادات الشيوخ والطرقية يحترمونها ويدعونها سياسيا ودينيا.

ولعل أهم سمت للطرق الصوفية هو نشرها للتعليم على البعد أو النطاق الواسع في أواسط الشعب الجزائري، بانتشار واتساع حدودها ومجالاتها، فقد كثرة الزوايا في البلاد الجزائرية وأصبحت ملجأ لهجرة العلماء الداخلية والذين عملوا على تأسيس زوايا تبث تعليما عالي في المستوى إلى درجة ظهور زوايا متخصصة في علوم معينة على مستوى الجامعات الإسلامية، كالزاوية الراشدية والقادرية واليقطنة في غرب الجزائر، وزاوية عين ماضي وطولقة بالصحراء الجزائرية، وزوايا العاصمة، وزوايا بلاد القبائل التي درست فنون وعلوم شتى كما أشرنا على مستوى التعليم العالي.[3]

وهذا المظهر الصوفي والمرابطي الذي أشرنا إليه هو جزء من الحياة الروحية التي سيطرت على الجزائريين، وتمسك المجتمع بدينه، فتجده محافظا على ممارسة شعائره الدينية والالتزام بها، ونلمس ذلك جليا من خلال ما كتبه الرحالة الأجانب كوليام شارل حول عادات وصوم رمضان طيلة شهر كامل، فهو يعد فريضة دينية بالنسبة للمجتمع الجزائري، وطالما أن الأتراك على نفس الديانة مع اختلاف في المذاهب (الفروع)، فإن التمسك بالفرائض من عادات المجتمع الجزائري، ولم تجبر عليه

(1) – جيلالي مختار: مرجع سبق ذكره، ص 64، 65.

(2)– العيد مسعود: مرجع سبق ذكره، ص 23.

3)–حنفوق إسماعيل: مرجع سبق ذكره، ص 38، 39، 40.

الفئات الغير الإسلامية كاليهودية مثلا ويتوج نهاية الصيام بعيد الفطر عند المسلمين وبعده يأتي عيد الأضحى الذي يأتي بعد شهرين وعشرة أيام، وهي مناسبة دينية يتبادل فيها الأفراح والتهاني.[1]

ونظرا لاهتمام وتمسك الجزائريين بدينهم فإنهم كانوا مهتمين بناء المساجد سواء من طرف الخواص والأهالي أو الحكام العثمانيين، ودليل ذلك عدد المساجد الصغيرة التي كانت في مدينة الجزائر لوحدها فاق 50 مسجدا، وهذه المساجد تضل مفتوحة طيلة اليوم لأداء فريضة الصلاة وعددها خمسة وتقام الصلوات في الليل والنهار، ينادي للصلاة عن طريق الأذان الذي يحدد به مواقيت الصلوات الخمسة.[2]

ثم إن عادات وتقاليد المجتمع الجزائري تحدده الشريعة الإسلامية و ضوابطها فعلى المسلم الالتزام بالأخلاق الحميدة وأن يكون حسن المعاملة ،ومنفتح على الديانات الأخرى والتي احترمها الجزائريون وسمحوا لهم بممارسة شعائرهم وفق تقاليدهم دينهم الإسلامي الذي يقضي بحرية المعتقد والحرية في العبادات، ووصل الأمر إلى حرية التقاضي التي تتمتع بها الأقليات الدينية.[3]

ومن عادات المجتمع الجزائري الدينية على غرار الصلوات والالتزام بها الحج إلى مكة المكرمة التي تعتبر فريضة، يرجون بها الأجر وكما اشرنا فإن الاحتفال بالأعياد الدينية والمولد النبوي يعد من المناسبات الدينية، وكان أكبر الأعياد هو العيد الأضحى المسمى Kurban Baycami ويحتفل به لذكرى التضحية المقدسة من قبل سيدنا إبراهيم عليه السلام بكبش بدل ابنه إسماعيل عليه السلام، ويتم الاحتفال بذبح أضحية وأداء صلاة العيد وبعدها يتم الذبح، وهذا بالإضافة إلى احتفالهم بالأعياد الدينية الأخرى، كعيد الفطر (العيد الصغرى) وهي بمناسبة نهاية شهر رمضان ويحتفل به بتبادل الهدايا والحلوى المصنوعة بالسكر.[4]

ومن عادات المجتمع الجزائري زيارة القباب والتبرك بها فهي معتقد ديني راسخ في أطباعهم، وتقوم به النساء خاصة، وكانت الزيارة تتم بانتظام ،ويقمن بإشعال الشموع وإبقاء المصابيح ويضفن الزهور لتدعيم التدخل الديني الذي يطالبنه بغية إبعاد المصاعب؟.[5] وفي الحقيقة يعد هذا الجانب من البدع والخرافات التي حلت بالبلاد نتيجة انتشار القبور الأولياء الصالحين ورجال الصوفية والمرابطين، خاصة بعد موته حيث تصبح قبورهم مقرا للتبرك بهم وتمارس طقوس أقل ما يقال عنها أنها نابعة من سذاجة العقل وتخلف المعتقد الجزائري.

---

(1)- وليام شارل: مصدر سبق ذكره، ص 67.

(2)- أو ج هابنسترايت: مصدر سبق ذكره، ص(37، 38).

(3)- نفسه، ص 46.

(4)- وليام سنسر: مصدر سبق ذكره، ص(120، 121).

5- نفسه، ص 126.

وتعتبر حادثة الوفاة محطة تعاون بين المجتمع حيث كان الرجال يساعدهم بعضهم البعض وكذا النساء، فإذا ما تم إعلان الوفاة فإن الأفراد في المجتمع الواحد يتوجهون إلى مكان الوفاة (دار الميت)، ويقومون بغسله وتوجيه إلى القبلة أمام الإمام ليتم دفنه وإذا كان الوفاة يوم الجمعة، فينتظر بالميت إلى حين الانتهاء من صلاة الجمعة، وبعدها يرافقه جميع المصلين إلى المقبرة مرتلين سورا من القرآن الكريم، ويمشون بسرعة إلى المقبرة، والتي تكون إما أرضا وقفا أو منطقة وضعت جانبا لهذا الغرض بموافقة الجميع ويترحم على روح الميت ثم يودع في الأرض في مكانة العائلة لكفنها، ويوضع حجر عند رأس يعلم به اسم الميت وتكون منقوشة بآيات قرآنية.[1]

4- القضاء والأوقاف

اهتمت الإيالة الجزائرية في العهد العثماني بصيانة أنظمة إدارية خاصة اقتبستها من الخلافة الإسلامية ومن النظم الإدارية العالمية أنذلك.وبعد أن أصبحت تابعة رسميا للخلافة العثمانية أوائل القرن 16م حيث طبقت فيها النظام الإداري كما هو في مركز الخلافة، تعد مؤسسة القضاء من المرتكزات الفعالة قي بناء دولة ولها مكانة عالية وكانت متواجدة من أيام العهد الإسلامي، وجعلها الملوك و الولاة إحدى الفروع الكبرى رفقة الإفتاء والصلاة والجهاد والحسبة وكلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى وهي الخلافة.[2]

وكان يشترط في من يتولاها:الإسلام والعقل والذكورة والحرية والبلوغ وسلامة حاستي السمع والبصر، وسلامة اللسان وهذا بالإضافة إلى شرط العلم والتقوى والصلاح والمسؤولية والمروءة، والعلم يراد به معرفة الأحكام الشرعية على وجه الاجتهاد ثم أسقطت مع مرور الوقت إلى معرفة الأحكام الشرعية وما يتبعها، وحتى إذا كان القاضي مقلدا لا مجتهدا، وقادر على التمييز بين الصواب و الخطأ، الحلال والحرام، الظالم والمظلوم.[3]

إن هذه الشروط التي وضعت كانت بالنظر إلى مهمة القاضي داخل مؤسسته، فالبداية كانت الفصل بين الخصوم، ثم تدرجت مع سياسة الملوك إلى استفاء بغض حقوق العامة بالنظر إلى أمال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه و النظر في الأوقاف و بعض الأمور الاجتماعية، كالزواج والنظر في المرافق العامة مراقبتها.[4]

---

(1)- ولم سبنسر، مصدر سبق ذكره، ص 1.126

(2)- ابن خلدون:المقدمة، تح درويش جويدي ، بيروت ،المكتبة العصرية للنشر،2001،ص202.

(3)-أبو الحسن النباهى: المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء و الفتيا، حتقيق لجنة إحياء التراث ، بيروت ، منشورات دار الأفاق الجديدة، ط5، 1984، ص(4 ،5)

(4)-ابن خلدون :مصدر سبق ذكره، ص205 .

وهذا ما سوف نجده حين نتطرق إلى مجالات القضاء بالايالة.وتجدر الإشارة هنا أن هذا الأخير تميز بالازدواجية[1]، مما أضفى تنوعا فيه إذ يمكن القول أن الأنظمة القضائية تنوعت بتنوع المشارب المذهبية التي جاءت خاصة مع توافد الأتراك إلى الجزائر، وسيطرتهم على السلطة والذين كانوا على المذهب الحنفي والإفتاء الحنفي إلى جانب المذهب المالكي و إفتاءه، وبالتالي ظهر القضاء على المذهبين، واحتل المذهب المالكي المرتبة الثانية بعد المذهب الحنفي رغم انه يمثل الأغلبية في البلاد[2]

ولقد أشار حمدان خوجة إلى القضاء بالايالة حيث قال"....تشتمل على محكمتين مكونتين من قاضيان، أحدهما مالكي والأخر حنفي..". [3]

وهذا بالإضافة إلى وجود محكمة خاصة بهيئتها وهي عسكرية تفصل في شؤون الجند ولا يحضرها أجنبي وكان قضاتهم يتبعون الحملات العسكرية داخل وخارج البلاد[4] ، ولا ننسى الأقليات الأجنبية التي كانت تتحاكم حسب رغبتها، حيث كان اليهود يتحاكمون لدى أحبارهم ومقدموهم والنصارى لهم محاكمهم الخاصة ولهم حرية اختيار القاضي ولا يلجؤون إلى النظم والأحكام الداخلية إلا في حالة وقوع الاشتباك بينهم وبين المسلمين.[5]

لكن رغم الاختلافات المذهبية القائمة فالأسر الجزائرية كانت حرة في التقاضي لدى الجهة التي ترغب فيها وقد أورد الأستاذ حماش نماذج لأسر جزائرية على المذهب المالكي تتقاضى لدى القاضي الحنفي ونفس الشيء كان مع الحنفية.وتجدر الإشارة هنا أن الفصل في النزاعات والخلافات بين فئات المجتمع الواحد كان يتم على مستوى النظم والأجهزة القضائية الأساسية في الايالة و كانت تلك الهيئة ثلاث المحكمتان الشرعيتان الحنفية والمالكية ومجلس الباشا والمجلس العلمي[6].وعليه فـــان أول محكمة ترفع إليها الشكاوي هي:المحكمتان الشرعيتان الأولى هي المحكمة الحنفية فحين تأتي المالكية في المرتبة الثانية بعدها، و تنظر هذه المحكمة في القضايا الإجرامية و التأديبية والجنائية والمدنية والحكومية وفي الخلافات العامة، وهي محكمة مستقلة عن الحاكم في بادئها.[7] _وكانت هاتان المحكمتان في مدينة الجزائر متجاورتان، حيث تمركزت المالكية بالقرب من السوق الكبير، و في

(1)–حنيفي هلال: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني ،الجزائر، دار الهدى للطباعة النشر، 2008 ،ص83

(2)– أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 392

(3)–حمدان خوجة :مصدر سبق ذكره، ص 72.

(4)–عبد الرحمن بن محمد الجيلالى:تاريخ الجزائر العام،ج2.الجزائر،مطبعة العربية،1900.ص287

(5)–نصر الدين سعيدوني والمهدى بوعبدلي:مرجع سبق ذكره،ص25

(6) –خليفة حماش:الأسرة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني،رسالة مقدمة لنيل دكتوراه في التاريخ الحديث،قسم التاريخ،جامعة منتوري، قسنطينة،الجزائر،2000 ،ص(658 ،659)، لقد أورد الأستاذ قي دراسته نماذج لقضايا طرحت لدى المحكمتان الحنفية و المالكية.

(7) –حمدان خوجة: مصدر سبق ذكره، ص72 .

الشمال تقع الحنفية(الرحبة القديمة) ويساعد كل قاضي في محكمته عدد من العدول، قدروا باثنا عشر عدلا، يتولون تحرير العقود و محاضر النزاعات والإشهاد فيها وإقامة الفرائض، والتحقيق في المسائل القضائية[1].

أما ثاني مؤسسة قضائية هي المجلس العلمي: تتألف من قاضيان ومفتيان[2] على المذهبين وشيخ النظر في الأوقاف والداي أو ممثل عنه .ففي هذا المجلس يرفع النزاع في النوازل و المشاكل العويصة وفيه تراجع أحكام القضاة، وينظر في القضايا الكبرى فهو بمثابة محكمة استئنافية عليا، كان مقرها بالعاصمة بالجامع الكبير، وكان يرأسه الحاكم نفسه واستمر عمل هذا المجلس إلى غاية 1874م أين تدخلت فيه السلطات الفرنسية بهيئة أوروبية أجنبية عن الإسلام، تعقد دوراته كل أسبوع[3] .

ثم يأتي مجلس الداي أو الباشا : ويضم نفس تركيبة المجلس العلمي، ويعتبر بمثابة المحكمة العليا وحكمها لا رجعة فيه، وبإمكان أي شخص رفع المظالم إليه، وبالعادة ينضر قي القضايا العويصة والمستأنفة من طرف مجالس المقاطعات الثلاث وكان هذا المجلس مفتوح على طول الأسبوع حسب ما تسمح به انشغالات الداي.[4] دون أن ننسى المحكمة العسكرية التي كانت تفصل في نزاعات الانكشارية، وهي هيئة خاصة لا يحضرها الغرباء، وكانت تتميز بالسرية في قراراتها وتنفيذها للأحكام.[5]

_إن جل هذه المؤسسات التي ذكرناها أغلبها يتمركز بالمدن، وعواصم المقاطعات، مكونة من القاضي الحنفي والمالكي، ويعين القضاة من طرف الباي ويخضعان لنفس الظروف.

---

(1)–مصطفى عبيد:القضاء بالجزائر خلال العهد العثماني ، مجلة العصور الجديدة ، مختبر البحث التاريخ تاريخ الجزائر، جامعة وهران ، عدد 11 _12 ،فيفري،ص219

*نلاحظ أن الإفتاء ارتبط بالقضاء فأينما كان القاضى وجد المفتى، إلا أن التفاوت الموجود بينهما هو تقديم الأحد على الأخر، فالقضاء كان منصنا رسميا يحمل المسؤولية والخطورة.فحين كان الإفتاء وظيفة دينية سياسية تحتاج إلى درجة عالية من التعمق في علوم الشريعة وأحكامها وفقهها و قدرة صاحبها على الاجتهاد بالإضافة إلى الخصال الطيبة و بالتالي فان الإفتاء وظيفة اعتبارية تقديرية يرجع إليها في فصل القضايا ذات البعد الديني..

(2) –حول الموضوع أنظر سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي ، ص(392 ، 393) .

(3)– الجيلالي :مرجع سبق ذكره، ص286 ،287

(4 مصطفى عبيد: مرجع سبق ذكره ، ص 220 .

(5) –الجيلالي :مرجع سبق ذكره ، ص287 .

_ أما في الريف فان مؤسسة الجماعة هي التي كانت تتكفل بالإصلاح حل الخصومات ما بين القبيلة أو القبائل وذلك فقد تشكلت هذه الأخيرة من أعيان القبائل وتتخذ من الساحات والأسواق العمومية مقر لعقد مجالسها.وكانت على قدر كبير من الهيبة والاحترام والوثوق في أعيانها وأشرافها ومرابطيها.[1]

وللمؤسسة القضائية جملة من الموظفين على غرار القضاة والمفتين، يوجد المحتسب وهو الذي يتولى"الإشراف والمراقبة على أنشطة الإنتاج باختلاف حلقاتها"[2]، بالإضافة إلى المزوار وهو الذي يسهر على نشر الأمن ومحاربة الدعارة والبغي.[3] وهو المتخصص في تنفيذ الأحكام القضائية بسرعة، وهو ما ساعد كثيرا على تفشي الأمن و الاستقرار داخل البلاد.[4]

أما فيما يخص أحكامها القضائية التي كان يصدرها القضاة فهي تتسم بالشدة والصرامة و القسوة، العقاب على الزنا هو الضرب والسرقة وقطع الأيدي، والعقاب على التمرد والتآمر والتهريب هو الإعدام خنقا أو شنقا.(هذا بالنسبة للمواطن العادي). فحين كان عقاب اليهود هو الحرق، و بالنسبة لمرتكبي الجنح والمخالفات فالعقاب عليها يكون بالجلد أو الغرامة أو الأشغال الشاقة مقيدا بالسلاسل[5]. فحين كان عقاب المجرمين الأتراك يختلف عن عقاب العامة، فعقاب التركي في الخلافات المدنية خفيف، فإما أن يعاقب أو تتغاضى السلطات عن عقابه حسب ما أكدته المصادر الأجنبية، فنادرا ما يحكم عليهم بالإعدام، بل يتم نفيهم كأقصى عقوبة وهذا احتراما للمؤسسة العسكرية (وحفاظا على استمراريتها) ونشير هنا إلى أن محاكمتهم تتم سرا عكس محاكمة العامة "العلنية"[6] ، وما يمكن ملاحظته من هذه العقوبات أنها مستمد من حكم الشريعة الإسلامية وبالفعل فان الشريعة والأعراف كانتا مصدر القانون والعقوبات بالايالة العثمانية، رغم تحفظها فيما يخص عقوبات الفئة التركية بالبلاد. ومن ثم فان هذه المؤسسات والموظفين التابعين لها جعلت القضاء يلعب دورا ملحوظا في جوانب الحياة العامة للولايات العثمانية ككل.

وقد لاحظ المؤرخين أن مجالات القضاء قد توسعت وتعددت إلى الأمور المتعلقة بالسكان في جميع المجالات:"....كان بالإمكان طرحها كلها من الناحية العلمية لهذه المحاكم:كل ما يسمى بالأحوال

(1) _مصطفى عبيد: مرجع سبق ذكره ، ص 218.

(2)_حسين الضيقة:الدولة العثمانية الثقافة المجتمع والسلطة ، لبنان ،المنتخب العربي ،1981، ص 134.

(3)_الجيلالي : مرجع سبق ذكره،ص287.

(4)_عمار عمورة:الجزائر بوابة التاريخ من ما قبل التاريخ إلى الاستقلال،ج2،الجزائر،دار المعرفة، دس،ص118.

(5)_وليام سبنسر:مصدر سبق ذكره،ص129.

(6)_جميلة معاشي:الانكشارية و المجتمع بيلك قسنطينة في نهاية العهد العثماني:رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث،قسم التاريخ،جامعة قسنطينة، الجزائر،2008،ص175

الشخصية (الميراث، الطلاق،... الدين والآداب....والشؤون والقضايا الدنية والجزائية والمسائل المتعلقة

بالأنشطة الاقتصادية(الصفقات التجارية والعقارية وتنظيم الطوائف الحرفية المشكلات المرتبطة بالإدارة المدنية الأحوال الحضرية وإدارة الأوقاف..... ومن ثم فقد كان القضاة يتمتعون باختصاصات لا حدود لها من الناحية العلمية."[1] ومن خلال ذلك:فان القضاة قد تشعبت مهامهم، فبعدما كانت متعلقة بالجانب الديني والأحوال الشخصية اتسعت لتشمل جل الحياة العامة للأفراد بالايالة، وما يمكن أن نلاحظه ونخلص إليه إن القضاء بالايالة كان محل دراسة من طرف المؤرخين المحليين والأجانب فقد تمت دراسته لمعرفة مستوى العدالة بالايالة، وبالنظر إلى مبادئه ومصدر أحكامه نلاحظ أن النظام القضائي في البلاد اتصف العدالة بالبلاد بالحق في التعامل مع القضايا وتحديد العقوبات إلا أن الجانب المتعلق بالأوجاق أو الفئة الحاكمة كان محل جدل بين المؤرخين في اعتبار معيار العدالة نظرا لخصوصية المتعلقة بهم ولهذه السياسة أبعادها الايجابية(الحفاظ على هيبة المؤسسة العسكرية) والسلبية تكمن وراء(تمييز بين طبقات المجتمع الواحد وفتح لتعديات وحدود الانكشاري)و بالتالي فان نظام القضاء كان قائما بحذافيره مع خصوصيته اتجاه الطبقة الحاكمة.

_نحن نعلم أن العلماء والفقهاء وأصحاب العلم والمعرفة ومن توفرت فيهم الشروط والأحكام العشر التي أشار إليها أبو الحسن النباهي في كتابه هم من تستوجب فيهم خطة القضاء فهل كان العهد العثماني اخذ بهته الأسباب.؟

بالنظر إلى تعاريف العلماء و ذكرهم في كتب المصادر أمثال الفكون في منشوره و ابن المفتي و الحفناوي يتبين لنا أن العلماء الجزائريين الذين تولوا منصب القضاء و الإفتاء كانوا من أكابر العلماء و الفقهاء أمثال أبو العباس حميدة ابن باديس(959هـ) أحد أشهر علماء قسنطينة ومن أشهر بيوتاتها العلمية، وكذا عبد اللطيف المسبح القسنطيني وغيرهم كثر.[2]

ولنفهم وضع العلماء ودورهم في مؤسسة القضاء و مستواهم وجب العودة إلى بعض النقاط منها:أن القضاة في بداية العهد العثماني كانوا يعينون من طرف السلطان، لكن مع استقلالية البلاد

(1)_روبير مانتران: تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعي ، ط1،القاهرة ، دن، ص535

(2)_أنظر أحمد توفيق المدني: محمد عثمان باشا.ص62 63 ومايليها

وبالتحديد نهاية القرن 17 م ومع استئثار الأوجاق بالحكم أصبح التعيين داخليا، ومعروف أن حسين بن رجب أول مفتي حنفي يتم تعينه داخليا[1]، وبالتالي فان هذا التعين قد أثر على المحاكم والقضاة الذين كانت أحكامهم تتصف بالشدة وبساطة المرافعات وسرعة التنفيذ، وتعكس رأي الحكام أكثر منه تشكي المحكوم ودليل ذلك أن بعض القضاة تجاهلوا وجود خمارات بالمدن الكبرى، وهذه الوضعية يؤولها المؤرخون إلى أوضاع القضاة الذين لم يكن مستوى دخلهم بالكثير ولم يهتم بهم الحكام الأمر الذي دفعهم إلى مجارات رغبات الحكام، كما أن باب القضاء أصبح مفتوحاً في وجه بعض الحضر وطبقة الكراغلة.[2]

والملاحظ أيضا على جهاز القضاء أنه اتجه إلى طور الانحلال والتفسخ خاصة في الفترة بعد القرن 17 م وتزامن هذا مع توسع دائرة اختصاصاته إلى جملة القضايا اليومية للأفراد ولعل أهم سبب في فساده هو إحالة مؤسسة الأوقاف إلى جهاز القضاء.و تغير طريقة تعين القاضي أين أصبح هذا المنصب مركزا مدعاة للبيع و الشراء حسب منطقة القوى المسيطرة عليه وبذلك أصبح القاضي من طبقة الأثرياء والأعيان.[3] وأصبح القضاة يتصفون بجهلهم للأحكام والقوانين العامة وجاهلين بإحكام وأعراف الشريعة ويصدرون الأحكام جزافا، وأصبح هذا المنصب مدعاة للتنافس بين العلماء ففيه بالإضافة إلى الجاه والأموال أكل أموال الوقف واليتامى.[4]

وجملة القول أن القضاء في بداية العهد العثماني كان قائما على العدالة والصرامة والسرعة في تنفيذ الأحكام والحياد، و ظل جزء من هذه الصفات آخر عهده فيما يخص العقوبات وسرعة تنفيذها، لكن الحياد والعدالة تأرجحت مع تأرجح المصالح أو القوى المسيطرة عليه._كما أن هذا الانحلال راجع إلى القضاة فبعدما كانوا من خيرة العلماء ويتصفون بسعة مداركهم للشريعة وأحكامها، ويتصفون بالصدق والأمانة على حسب تعبير وليم سبنسر أصبحوا بعد القرن السابع عشر آليات بأيدي الحكام تسير حسب مصلحتهم وأصبح هذا المنصب الذي كان يرفع ويتهرب منه لدى أهل العلم، أصبح منصبا للتنافس والتحارب عليه لدى أهل الجشع والطمع.

ذكرنا سابقا أن مؤسسة الأوقاف بالايالة كانت مرتبطة بمؤسسة القضاء خاصة في القرن 17 تحديدا مع فترة حكم صالح باي، لكن قبل التطرق إلى هذا الموضوع نذكر بعض العناصر حول مؤسسة الأوقاف بهذا الإقليم في العهد العثماني.

---

(1)_أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي، ج1 ،ص 394

(2)–سعيدوني والمهدي: مرجع سبق ذكره، ص23 24 .

(3)–حسين الضيقة : مرجع سبق ذكره، ص136

(4)–أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي،ج1، ص395

كان الوقف مظهرا يعكس فعل الخير و الصدقة الذي ينبع من الإنسان، والوقف هو قطع المتصرف عن ملك وصرف المنفعة به إلى جهة أخرى، وهو نوع من أنواع الصدقات و أعمال البر و الخير التي حث عليها الإسلام في شرعه وسنته، ومن ذلك قوله تعالى{وما تفعلون من خير يعلمه الله وتزودوا، فان خير الزاد التقوى..[1]} وقال أيضاً:{...لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقون من شيء فان الله به عليم.... }[2] وكذا عن قول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث رواه أبو هريرة (رضي الله عنه):"إذا مات ابن أدم انقطع عنه عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعوا له".و يعد الوقف من أهم صوره، ومن هنا اكتسب القف أهمية اجتماعية واقتصادية ودينية وعلمية كبيرة في المجتمع.[3] حتى أرسي كنظام يقوم كدعامة للمجتمع الواحد.

_وبما أن الجزائر في العهد العثماني كانت تعيش ضمن تعددية المذهبية، فان نظرة المذهب الحنفي إلى الوقف عكس نظرة المالكية حيث أن هذه الأخيرة يرى عدم جواز التحبيس الذري، بمعنى أن لا تستفيد عائلة الواقف ونسله من بعده في الانتفاع بالشيء الموقوف، فحين يرى المذهب الحنفي عكس ذلك، حيث أجاز للواقف وسلالته الانتفاع من بعده حق الانتفاع، وبهذا انتشر الوقف في البلاد الجزائرية خاصة من جهة الحنفية[4]. وقد أشار حمدان بن عثمان خوجة إلى الوقف و مؤسساته الذي أنشأ حسب المذهب الحنفي والذي تسمح مبادئه باستمرار المنفعة حيث قال:"لقد أنشأ حسب قوانيننا مؤسسات خيرية وأوقاف تهدف.....إلى تحسين أوضاع الفقراء والتخفيف من مصائبهم....وفقا للمذهب المالكي فان الذي يهب ملكا يتعهد بأن يسمح للمؤسسة المهدى لها أن تشرع حينا بالتمتع بذلك، و حسب مبادئ القضاء الحنفي فان إرادة الواهب تصبح في حد ذاتها قانونا...(حسب ما أشرنا إليه أنفا)...وأجمع الفقهاء على أن يطبق المذهب الحنفي على كل الهبات المشروطة، وذلك لرفع الموارد الخاصة بالطبقة المعوزة وعلى العكس، فلو طبقت مبادئ القضاء المالكي فان الأوقاف تقل بكثير مما عليه"[5] .

_وبذلك فقد تطورت ظاهرة الأوقاف أو الحبوس في البلاد الجزائرية ويعود الفضل في ذلك إلى موقف القضاء الحنفي الذي دخل إلى الجزائر مع وجود الأتراك بالمنطقة وبفضل ذلك ازدهرت

---

(1)-سورة البقرة،197

(2)-أل عمران: الاية 92 .

(3)- ياسين بودريعة:أوقاف الأضرحة والزوايا بمدينة الجزائر وضواحيها خلال العهد العثماني: مذكرة لنيل شهادة الماجستير تخصص تاريخ حديث ،جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر،2007 ،ص23 24.

(4)- نفسه، ص.25

(5)- حمدان خوجة: مصدر سبق ذكره،ص-ص(238 237).

الحبوس وكثرت، وأغلب مصادرها من الحنفية باختلاف درجاتهم، ولا يستثنى منهم الجزائريون الذين أوقفوا أيضاً بوجه نظر الحنفية[1] والمالكية طبعا.

ونتيجة لذلك ظهرت عدة مؤسسات استفادت من نظام الوقف، حيث توزع الوقف على عدة مؤسسات خيرية ذات طابع ديني وشخصية قانونية ووضع إداري خاص، وهي حسب كثرتها تصنف إلى أوقاف الحرمين الشريفين، ومؤسسة سبل الخيرات وأوقاف الجامع الأعظم، وبقية المساجد وأوقاف الأندلس، أوقاف الجند والثكنات والمرافق العامة.[2]

وتكمن أهمية الوقف فيما يلعب من دور كإحدى المؤسسات الهامة من حيث إسهامه في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بل وحتى الإدارية، فقد لعب دورا كبيرا في تسير المرافق العمومية خاصة المساجد منها بالإضافة إلى مساعدة الفقراء المحتاجين والطلبة والمدرسين[3]، ودليل أهميتها هي اعتنائها بالمساجد، حيث سجل الفرنسيين حسب إحصاءات دوفوكس في سنة 1830 أن عدد المساجد في مدينة الجزائر كان بين 13 جامعا كبيرا، 109 مسجدا صغيرا، 32 ضريحا'و12 زاوية، [4] وهذا دليل صرف أموال الأوقاف، حيث كانت مورد إصلاح وتحسين وبناء وترميم المساجد وغيرها من المرافق العامة كما ذكرنا سابقا، لتبقى وتصل إلى حد إحصاء الفرنسيين لها.

ولقد خص الحكام نظام الوقف بعناية كبيرة، حيث تم تنظيمه بصفة دقيقة'فالوكيل أو الناظر كان المشرف عليه والناظر في شؤونه وأوجه إنفاقه، وكان هذا الأخير يعين من طرف باي الإقليم على حسب النزاهة والعلم والسمعة الطيبة بين الناس والأخلاق الفاضلة، وقد تدخل البايات في شؤون الوقف حرصا على سلامته وحسن استغلاله مثلما فعل صالح باي في إقليم قسنطينة حيث قام بربط الوقف بمؤسسات قضائية للحرص والسهر على حسن استغلاله[5] .ولم تعرف إدارة الأوقاف تنظيما محكما إلا في عهده بفضل استصلاحه لهته المؤسسة وتحديد نظام فعال لها وقد تزايدت الأوقاف أواخر العهد العثماني خاصة مع أواخر القرن18 حسب السجلات والمحاكم الشرعية خاصة فيما تعلق بالأضرحة والمؤسسات الدينية_(نشاط الصوفية والمرابطين)_كما اتسعت دائرة الأوقاف ليشمل في موارده

(1)- نصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثمانى، الجزائر ،لمؤسسة الوطنية للكتاب ،1984 ، ص150

(2)- نصر الدين سعيدوني:نفسه ،ص156 .(للتوسع أكثر أنظر مايلي هذه الصفحات).

(3)- يوسف أمير:إسهامات الداي في وقف المساجد بمدينة الجزائر،(1671 1830) ،مجلة الدراسات التارخية،جامعة الجزائر ،قسم التاريخ،العدد14 ،2012،ص156

)4(- DEVOUL..les édifices religieux de l'ancien Alger .en revue africaine v-6.1862 .p 372.

(5)- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ج1 ، ص229.

أراضي وعقارات، أدوات، نقود، مزروعات ...الخ، حيث تنوع الوقف و كثرة الجهة الموقفة مهما كانت وضعية الوقف.[1]

وبالعموم فان الوقف أغراض كثيرة يصعب حصرها وأهمها غاية له هي عنايته بالعلم و العلماء وطلبة العلم والعجزة واليتامى وأبناء السبيل ومن أغراضه السامية أيضاً العناية بالمدارس والمساجد والزوايا، وقد اعتبر الوقف الخزينة التي تمولت بها المؤسسات التعليمية وتكاثرها ومصدر عيش العلماء والطلبة (فمنها تدفع أجور المعلمين) والوقف أو الحبوس كانت تأتي من مصادر مختلقة سواء من الأهالي أو الحكام[2].

وخلاصة القول أن ظاهرة الحبوس أو نظام الوقف عرف انفتاحا وتوسعا أكبر مع ظهور المذهب الحنفي والذي كانت رؤيته للأشياء الموقوفة تختلف عن نظرة أحباس المالكية، وبالعموم فان كلا الطرفين ساهما في الأوقاف وخاصة مساهمة الحكام ونماذج إسهاماتهم تبدأ من خير الدين باشا إلى آخر داي بالبلاد بصفة عامة.ومهما اختلفت أسباب الوقف لدى الحكام والأهالي، فان منبعه وهدفه لا يمكن تجاهله، فغايته القصوى هو فعل الخير بالعموم، حتى ولو ترتب عنه منفعة شخصية أو كسب لمكانة اجتماعية أو لأغراض أخرى.

(1)- ناصر الدين سعيدوني: دراسات و أبحاث ....، ص (154 153).

(2)- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ص231.

الفصل الثالث

النشاط الفكري لحواضر المغرب الأوسط

1. الحركة التاليفية
2. الرحلات العلمية بين الحواضر
3. الصلات الفكرية بين حواضر المغرب الاوسط وحواضر المغرب الاسلامي

سبق وأشرنا إلى الحياة العلمية بالجزائر في العهد العثماني، وقلنا أنها كانت منتشرة بربوع البلاد وكانت تتمركز على مؤسسات واسعة شملت المدن والقرى، نتيجة لانتشارها أفرزت هذه الأخيرة حركة فكرية كانت محطة تناظر المؤرخين حول مخرجاتها العلمية ومؤلفاتهم. وسنشير هنا إلى طبيعة النشاط والحركة في طلب العلم وعن الاتصال والمبادلات العلمية بين الإيالة والأقطار العربية الأخرى.

1-الحركة التأليفية:

لقد ذكنا سابقا أن الثقافة في الجزائر كانت تتركز على العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه، وبرامج التعليم ومؤسساته كانت بالأساس ذات طابع ديني، فأصبح من الطبيعي أن تكون حركة التأليف مقتصرة في أغلبها على الجانب الديني العقائدي والتصوفي، ونظرا إلى خصائص الحياة الثقافية التي أشرنا إليها في الفصل الأول من البحث، فقد تم إهمال العلوم العقلية مثل الفلسفة والرياضيات والتاريخ، فحين كان اهتمامهم باللغة العربية من جانب العناية بالفقه والشريعة التي تطلب معرفة مفردات اللغة وعلومها[1]، وتتميز حركة التأليف بكثرة الحواشي والشروح وتقليد نشاطات، ودراسات أعمال العلماء السابقين فقل الإبداع، وكثر التقليد والنقل والدوران في حلقة العلوم الفقهية والتصوف[2]، ومع ذلك فقد تخرج من الجزائر مجموعة متميزة من الفقهاء والكتاب تولوا الخطب الدينية والقضاء والوظائف التعليمية بالمدن وجهلهم من المذهب المالكي، وبعضهم بالمدن الكبرى من المذهب الحنفي.

وكان لهؤلاء مساهمة على الحفاظ على التراث الإسلامي فإن تميز الفترات الإسلامية التي عقبت عهد الموحدين – خاصة فترة العهد العثماني – والتي غلب عليها شروح وملخصات دينية، وتصانيف أدبية وتقاليد تاريخية اتصفت بالإطناب والسجع والتكرار، واستندت إلى حفظ الرواية والنقل وعرض المسائل كما وردت دون تحميص أو نقد أو ابتكار أو تجديد، ومع ذلك فقد نتج عنها إثراء الثقافة العربية بما جمعوا أو صنفوه أو شرحوه من مختلف المعارف الفقهية (فقه، تفسير، قراءات، توحيد،أصول، معاملات، نوازل، فتاوى) وإنتاجا في المعارف اللغوية والأدبية والفنون العقلية[3].

فظهرت لنا بذلك مخرجات في ميادين مختلف اشتهر منها جملة من العلماء، فذكرهم كما يلي: (نستثني الحياة الأدبية والفقهية لتناولنا لها في الفصل السابق).

لقد أشنا سابقا إلى كثرة الشروح والحواشي فيما يخص التأليف في الجانب الأدبي والفقهي، وبرز ذلك جملة من العلماء الكبار في كل المذاهب التي كانت بالبلاد، فظهر أحمد المقري في نفخه، وبروز الاخضري في البلاغة والمنطق بجوهره، وعيسى الثعالبي في الفقه وشرح الأسانيد، وهو صاحب مقاليد

(1)- ليلى غويني: مرجع سبق ذكره، ص 65.

(2)- سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص 21.

(3)- نصر الدين سعيدوني: ولايات المغرب العثمانية، ص 146.

الأسانيد، ويحي الشاوي مؤلف كتاب أصول النحو، وعبد العزيز الثميني برز في فقه الإباضية وفي التصوف وعلم الكلام، غلبت روح التصوف على الحياة العلمية والاجتماعية في الجزائر خلال العهد العثماني بقدر إنتاجهم الوفير في هذا المجال، فكثرت الشروح والتقيدات والرسائل والكتب والأذكار والأوراد، وكل ما تناول التصوف من قريب أو بعيد، ورغم تقادم الزمن فقد ظلت كتابات ابن سعد(النجم الثاقب)، وأعمال محمد بن يوسف السونسي واحمد النقاوسي (الانوار المنبجلة)، وأعمال الحوضي الجزائري (احمد بن عبد الله)، وعبد الرحمن الثعالبي ومرائي الفراوسني والمازوني (علماء الشلف)، وغيرهم مصدر إلهام لمن كتب شروحا و رسائل في مجال التصوف، فقد خصوا تأليفات المليانى وهؤلاء بالشرح والمناقب والحواشي ...الخ[1].

ولا يسعنا حصر المخرجات لكثرتها وتشبعها لذلك سنعرضها في مجالات ،فأشهر من كتب في التراجم والرحلات وعرض الآراء والمواقف الشخصية :

- ابن مريم المديوني ت(1605م)، مؤلف البستان في ذكر الأولياء وعلماء تلمسان.
- عبد الكريم الفكون ت (1602م)، صاحب منشور الهداية.
- محمد ميمون الجزائري (ت بعد 1700م)، واضح التحفة المرضية في الدولة البكداشية.
- ابن حميدوش عبد الرزاق (ت 1781م)، صاحب الرحلة المسماة لسان المقال.
- الحسين بن محمد الورثلاني(ت 1779م)، المعروف برحلته الشهيرة.
- أحمد بن قاسم البوني*(ت 1726م)، له روضة الشهية في الحلة الحجازية[2].
- أحمد بن عمارت(ت 1789م)، مؤلف الليبت بأخبار الرحلة إلى الحبيب ولواء العصر، في علماء العصر.
- عثمان بن حمدان خوجة(ت 1845م)، المرآة وهي تقيد ضمنها أوضاع الجزائر أواخر العهد العثماني.
- أما في علوم التقليد والأخبار والروايات في الجزائر فلدينا:
- ابن سحنون الراشدي له الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني.
- عبد القادر المشرقي(ت 1778م)، صاحب بهجة الناظر في اخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر.
- محمد بن رقية الجريري التلمساني(ت 1779م)، له الزهرة النادرة فيما جرى في الجزائر حين أغار عليها الجنود الكفرة.

---

(1)- سعد الله: تاريخ الثقافي، ج2، ص 112. وللتوسع أكثر في معرفة الحواشي والرسائل أنظر ما تلا هذه الصفحة.

(2)- سعيدوني: ولايات المغرب، ص (147، 148).

* أنظر حول جل المؤلفين الذين سبق ذكرهم لديهم تعاريف خاصة بهم في مقدمات كتابهم.

- ❖محمد بن أبي راس الناصري (ت 1822م)، له مؤلفات عديدة اشتهرت منها: رحلة المسماة عجائب الأسفار..."
- ❖أحمد بن هطال التلمساني توفي عام 1804م، له رحلة محمد الكبير باي الغرب نحو الجنوب الوهراني.
- ❖أحمد الشريف الزهار (ت1832م)، له خاتمة أنيس الغريب والمسافر.
- ❖محمد بن يوسف الزياتي(ت 1805م)، درء الأعيان في أخبار أعيان مدينة وهران.
- ❖إسماعيل بن عودة المزاري (ت 1897م)، طلوع سعد السعود في أخبار مدينة وهران ومخزنها الأسود[1].

2 الرحلات العلمية بين االحواضر:

تعد الرحلات مظهرا من مظاهر النشاط الفكري للعلماء، فالتأليف والتعليم لا يتم عادة عندهم إلا بعد تلقن العلماء لأصناف العلوم في الحواضر العلمية الكبرى، والسعي إلى اكتسابها، إذا كانت داخل البلاد أو خارجه، وكأي عهد تاريخي لم يغفل العهد العثماني عن الرحلات بمختلف أنواعها، غير أن الذي يهمنا هو الرحلة في ميدان الفكر والنشاط العلمي هو بعد أن نعرف مفهوم الرحلة وأنواعها

مفهوم الرحلة:

الرحلة هي الارتحال من مكان إلى آخر، ومن حال إلى حالة... والرحلة هي الحركة، والحركة روح الحياة، وقد يدهش البعض إذا علم أن كل سلوك وكل شيء هو رحلة، فالإنسان في الحياة هو في رحلته وحركة الشمس رحلة، وحركة القمر رحلة... الخ، الرحلة سمة أساسية من سمات الكون، لذلك نجد القرآن الكريم يحثنا على الرحلة فيقول الله عزوجل « هو الذي جع لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من زقه وإليه النشور*» سورة الملك "الآية1"، وقوله تعالى « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا واسعة*» النساء، الآية"100".

ونظرا لهذا الحث ودعوة الله عزوجل عبادة إلى الهجرة والاستكشاف في سبيله، حثنا الرسول الكريم للخروج في طلب العلم فقال عليه أفضل الصلاة والسلام " من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة "، كما أخبر القرآن الكريم عن بعض نماذج الرحلات منه ما ارتحل العرب قديما

(1)– سعيدوني: ولايات المغرب، ص(147، 148)

وهي رحلة قريش قال تعالى«لإيلاف قريش(1) ايلافهم رحلة الشتاء والصيف (2) فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف "3"» سورة قريش[1].

ومنه يتبين لنا أن الرحلة فن من فنون العلم، لها أهدافها وغاياتها وقد برع الرحالة المغاربة في فن الرحلة وكثرة دوافعهم وارتجالهم فمنهم من اتجه بدافع الحج وأداء الفريضة وزيارة المدن المقدسة ومنهم من اتجه في طلب العلم من منابع في حواضر الشرق المعروفة آن ذلك كالحجاز وغيرها[2]، لم تكن غاية الرحلة هنا محصورة في هذان السببان بل كانت لها أغراض أخرى تنوعت بعدها الرحلة بتنوع الدوافع المحفزة لها.

الرحلة الاستطلاعية، وتقوم قصد المغامرة والإستكشاف للأماكن المجهولة لدى صاحبها فيصف بذلك تلك الأماكن وصفا جغرافيا وأنثروبولوجي، وكان هذا النوع رائدا لدى المغاربة وأدل دليل على ذلك رحلة إبن بطوطة وغيرهم، وهناك رحلة بدافع سياسي ويكون صاحبها مبعوثا سياسيا، وتسمى الرحلة السفارية فتأتي هذه الرحلة بأخبار عن الملوك وأدائهم وسلوكهم وسياستهم مع أهل العلم والعلماء والنابغين سميت منه الرحلة بالعلمية، فتصف لنا حالة العلم في عصرها وأشهر علمائها وأروع مؤلفات منهم.

وهناك الرحلة الحجازية وهي رحلات نظامية يصف فيها صاحبها رحلته إلى الحج، وتتميز بأسلوب أدبي تنمقي يصف فيه الشاعر أحاسيسه وشوقه إلى البقاع المقدسة وشاع كثيرا في العهد العثماني الرحلة الزيارية لدى الأضرحة والأولياء والزوايا والأماكن المقدسة وهي نوع من النقاط التي يفتخر بها الرحالة ويذكرها في رحلته كما فعل الوثيلاني الذي زار الزوايا والأضرحة في بلاد المغرب والحجاز[3].

لقد ساعدت لهذه الرحلات في ظهور روابط علمية بين بلدان وعلماء الذي إما ارتحلوا إليها أو حلو بها، ونحن هنا بصدد إبراز بعض الرحلات التي انطلقت من داخل الوطن ثم ذكر الرحلات التي أتت من خارج إقليم المغرب الأوسط.وتجدر الإشارة هنا أن الرحالات الحجازية التي وصلت إلينا فيما يخص العهد العثماني والتي كتبها أصحابها بعد أدائهم فريضة الحج، وللأسف فإن بعضها لم يصل إلى أيدي المؤرخين وبعضها فقد نصفها ولم يتبق لنا سوى القليل إذا ما قارناه بالرحلات المغربية[4].

---

(1)- محمد بن مسعود بن عبد الله احمد: موسوعة الرحلات العربية المخطوطة والمطبوعة، القاهرة، دار الكتب والوثائق، القومية، 2008، ص-ص(4، 5).

(2)- عواطف محمد يوسف نواب: الرحلات المغربية والأندلسية، الرياض، د.ن، 1996، ص 71.

(3)- ليلى غويني: التفاعل الثقافي بين دول المغرب في العهد العثماني من خلال الرحلات الحجازية، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر 2، 2011، ص 19، 20.

4- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج1، بيوت، دار الغرب الإسلامي، ط3، 1990، ص-ص(177، 179).

وبما أننا سوف نتحدث عن الرحلات التي قام بها الجزائريون، فقد لاحظنا إستباغها بغاية دينية علمية، فقد أطلق على الرحلات التي قام بها الجزائريون بالحجازية، ذلك أن غايتهم الأولى كانت الحج ثم طلب العلم، ونجد الإشارة هنا إلى أن أغلب الرحلات التي قامت كان خلال القرن 12هـ/ 18م، وكانت مكتوبة شعرا أو نثرا والرحلات الشعرية هي التي نظمها شاعر فصيح الذي يستطيع بشعره أن يصف دروب رحلته، وما نال إعجابه في البلدان التي زارها والأمور التي أثرت فيه، ومن ذلك قصيدة الشاعر سعيد المنداسي والتي تعرف "بالعقيقة"، وقد نظمها سنة 1088هـ/ 1677م، وكان موضوعها هو مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ووصف البقاع المقدسة وأثار الحجاز وذكرياته الدينية الغابرة، ولقد لقيت هذه الرحلة إهتمام أدباء آخرين فأضافوا عليها شروحا مثلما فعل أبو راس الناصر في شرحه الذي سماه " الدرة الأنيقة"[1].

ومن الرحلات المنظومة أيضا رحلة محمد بن مسايب وقد كتب رحلته بالشعر الشعبي الملحون وكان كثير الانتشار في العهد العثماني وقد خرج من تلمسان متجها نحو مكة وفي حله أخبار جغرافية طريقه، وأشار إلى ظاهرة التبرك بالأولياء والأضرحة والمرابطين، وأغفل هذا الأخير في منظومته الأوضاع الاقتصادية والسياسية والثقافية للمواطن التي مر بها، توفي سنة 1776م[2]، وهذا بالإضافة إلى رحلة عبد الرحمن المجاجي، من أهل مجاجة، تقف على يد علماء تلمسان وفاس وله عدة تأليف منها: " التبريج في أحكام المغاربة التصير والتوليج" بالإضافة إلى شرح متن خليل واشتهر بتنظيمه لرحلته شعرا ملحونا ووصف فيه طريق رحلته من مكة على طيبة ويذكر مناسك الحج، ثم المدن والمناطق التي عبرها وصولا إلى الصحراء الجزائرية بتحديد إلى مجاجة سنة 1653م[3].

وهذه كانت عن الرحلات بالشعر الملحون لكن أغلب الرحلات المتعارف عليها هي الرحلات النثرية لا الشعرية، وقد أشرنا سابقا إلى أن جل الرحلات كانت في القرن 18م، أو بالأحرى هذا ما وصل فلا نعلم إذا كان هناك رحلات قبل هذا القرن (ق 16م/ 17م)[4]،وربما يعود سبب ذلك إلى تلفها أو ضياعها، فالحركة العلمية كانت منتشرة في أواسط العلماء وتكاد تكون تقليدا خاصة ان الجزائر كانت تفتقر الى معاهد عليا كالجوامع الإسلامية المشهورة في ذلك العصر.

وقبل التطرق إلى الرحلات الحجازية النثرية نشير هنا إلى أن هذه الرحلات كانت تم على مدن هامة وحواضر علمية كقسنطينة، الجزائر، بجاية، تلمسان، بسكرة، بونة، جامع تونس، القاهرة، وصولا إلى الحجاز ومدنه وقراه، وأحيانا يكون الطريق بحري فيذكر فيه الرحالة المدن الساحلية وخصائصها

(1)- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج1، ص 180.

(2)- ليلى غويني: مرجع سبق ذكره، ص 53.

(3)- نفسه، ص 52.

(4)- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الثقافي، ج2، ص 390.

وفي طريق عودتهم من الحج يبحثون عن ديار العلم، فقد يكملون مسيرتهم إلى خارج البلاد أو يستقرون بالأمصار والحواضر العلمية كالقاهرة والقيروان و فاس ... الخ، ولا ننسى الرحلات العلمية إلى داخل الوطن خاصة منها المغاربية التي تطلعنا عن حقيقة ومستوى الثقافة الجزائرية، وتكشف سبب إلتجاء هؤلاء إلى طلب العلم في البلاد حتى ولو كان الركود فيها سائدا على حد تعبي الكثير.

ونحن هنا بصدد ذكر نماذج من الرحلات الحجازية الجزائية التي أمكن للمؤرخين الاطلاع عليها ودراستها ولا ننسى أن نذكر أن هذه الرحلات تبرز لنا ملامح التفاعل الثقافي الذي عاشه الرحالة الجزائري

رحلة البوني:(1063هـ/ 1139م)

تعد رحلة البوني أكثر الرحلات الحجازية المذكورة في المصادر حيث سماها " الروضة الشهية في الرحلة الحجازية"، وقد أشاد بهاته الرحلة ابنه المعروف بأحمد زروق البوني حيث أشار بأن والده كتب عن شيوخه وعن المسائل العلمية وظرفا أيضا حيث قال " فعليك به فإن فيه ظرفا وطرفا " ولكن لسوء الحظ فإن هاته الرحلة تعد من المفقود، وكانت لتكون هاته الرحلة ذات أهمية بالغة خاصة أن هذا العالم جاب المشرق وعاش فيه واخذ عن علماء كثر فيها.[1]

الرحلة الثانية هي رحلة ابن حميدوش:(1695 توفي بعد 90 سنة)

هو عبد الرزاق بن محمد بن أحمد المعروف بإبن حميدوش الجزائري عاش خلال القرن 18م، لقد اخذ هذا العالم منذ العشرينات من عمره يجوب العالم الإسلامي، يبحث عن العلم وعن الإيجازات، بدأ ابن حميدوش رحلته بالحج ثم اتجه بعدها نحو المغرب الأقصى والمشرق في مناسبات عدة، وما يميزه هذا العالم أن اهتماماته لم تكن مقصورة على الجانب الديني فقط بل تعدتها إلى الجانب العلمي الذي مال إليه أكثر من الجانب الفقهي والصوفي. ورغم أن هذا الأخير لم يذكر لدى معاصريه من العلماء كإبن عمار والورثلاني وغيرهم إلى أن كتبه خاصة السياسة والعلمية جذبت انتباه المسلمين والأوربيين وأصبح يعرف بعد ذلك بتسجيله للأثار الاجتماعية والدينية والطب العشبي وعند العلماء الأوربيين بمساهمته في مجال الطب العربي والأحداث التاريخية.[2] أما بالنسبة لرحلته فهي كانت مكتوبة في عدة أجزاء، إلا أنه لم يصل إلينا إلا الجزء الثاني وهو بدوره مبتور، وهذا الجزء يتعرض لحياة الجزائر والمغرب الأقصى وبذلك تصبح رحلته غير مكتملة، وحسب سعد الله فإنه لا يمكن تصنيفها بفعل ضياعها في الرحلات

(1)- أبو القاسم: أبحاث وأراء، ص 182.

(2)- ابن حميدوش: رحلته المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1983، ص 9، 10.

الحجازية فهو لم يتطرق في جزئه الثاني إلى الحجاز، وربما يكون قد ذكرها في أجزاء أخرى والتي هي للأسف طي الضيعان.[1]

أما الرحلة الأخرى هي رحلة ابن عمار: (1707هـ/ 1797م)

وهي الرحلة التي اشتهر بها هذا الأخير، وكما أشرنا إلى هذا الأديب الذي نال شهرة لدى علماء عصره، و كان هذا العالم أديبا وشاعرا اشتهر بتنظيم القصائد والموشحات في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان ابن عمار محب للتنقل والترحال وقصد المشرق مرتين، المرة الأولى مكث فيها 12 سنة وكانت سنة 1753م ثم عاد إلى وطنه سنة 1763، وأما الرحلة الثانية فكانت بعد سنة1781م، قصد بها تونس إلا إن الظروف تلك البلاد جعلته يكمل سيره إلى الحجاز ويظل بها على غاية وفاته.[2]

قسم ابن عمار رحلته إلى ثلاثة أقسام، مقدمة وعرض مقصود وخاتمة، ولم يصل إلينا سوى المقدمة وبقية تأليفه ضاع والحال أيضا في جل تأليفه الأخرى خاصة أنه كان كثير التأليف، وتميز على أسلوب علماء عصره وخالفهم فيما كانوا يكتبون في الحواشي والشروح، ولهذا تعد أغلب كتاباته في حكم المفقود، ووصف ابن عمار في هذه الرحلة (المقدمة، اشواقه إلى الحرمين الشرفتين وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم، تحدث عن شعر الموشحات المولديه وعادات سكان الجزائر بالاحتفال بالمواليد فكتبه بأسلوب نثري، واما الأجزاء الأخرى فيرجع سعد الله أنها احتوت مضامين الرحلة من أخبار وتفاصيل عن الأماكن التي مر بها وعاش فيها.[3]

ومن العلماء الجزائيين الذين اشتهروا بالرحلات نجد:

أبو راس الناصر: وهو من أهل القرن 18م، له مخرجات كثير، حج هذا الأخير مرتين المرة الأولى سنة 1204هـ والثانية 1226م، ويهمنا من تأليفه رحلته التي أسماها " فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، وكان لهذه الرحلة تسميات أخرى، تضمنت هذه الرحلة حديثا عن مشاهداته و معايشته في الجزيرة العربية أو أخبار شيوخه ومن لقاهم من العلماء بالمشرق والمغرب على حسب سعد الله، فإن رحلة أبو راس الناصري ركزت فيها على الإجازات العلمية والمناظرات التي حضر العالم مع علماء آخرين في البلدان التي مر بها، وجعل هذا الأخير رحلته على خمسة أبواب، الباب الأول تناول فيه: حياته، والباب الثاني تناول فيه: شيوخ في الجزائر وخارجها، والباب الثالث تحدث فيه: عن رحلته،

(1)- سعد الله: أبحاث وأراء، ج1، ص 182.

(2)- ليلى عويني: مجع سبق ذكره، ص 48.

(3)- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج2، ص 392.

والباب الرابع تناول فيه: أجوبة لمسائل طرحت عليه، والباب الخامس: وصف فيه تأليفه وتحدث عنه،[1] وهي ناقصة غير كاملة.

أما الرحلة الوحيدة المطبوعة والكاملة هي رحلة الورثلاني:هو الإمام العالم العلامة سيدي الشيخ حسن الورثلاني نسبة إلى قبيلة بني ورثلان ببجاية، ذكر الحفناوي في تعريفه بأنه إمام ورع متصوف وزاهد، وعالم وفقهيه إلى غير ذلك من صفات المحمودة الدالة على علمه وعمله ودينه الحميد، وللورثلاني مؤلفات كثيرة منها ما في التصوف والدقة والتوحيد منها شرحه للمنظومة القديسة لعبد الرحمن الأخضري، في التصوف وشرحه الخطبة الصغرى وقصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ورسالة في حل لغز سيدي احمد المليانى لما عجز عنها أهل فاس، توفي في السنة العاشرة من القرن الثالث عشر.[2]

لقد حج الورثلاني تلاث مرات على الأقل الأولى كانت سنة 1153هـ، والثانية 1166هـ والثالثة 1179هـ، وكان يجمع فيها أخبار الحجاز فرحلته تعد الوحيدة التي تحدثت بإسهاب عن أحوال الجزيرة العربية، وكتب رحلته هذه في حجته الأخيرة، وذكر فيها أهم المحطات التي زارها ومر بها، والمواقف أثنائها، وذكر زيارته للقباب والأضرحة في المدن والزوايا التي مر بها، وكان يأخذ الطريقة والعلم على مشايخها وجعل ها في كل الأماكن التي مر بها مصر تونس والحجاز، ورحلته لم يخطها بيده وإنما أملاها على تلامذته حسب ما جرت به العادات أنذلك. [3]

وبعدما هذا الحصر للرحلات الجزائرية في هذا العهد، نجد تشابها للرحلات إذ كان في غايتها واحدة، فالهدف منها كان الحج وطلب العلم من مختلف البلاد والمسالك الجغرافية التي اعتاد عليها الحجاج في عبورها، ولو لم تكن هذه الرحلات مبتورا وضائعة في أغلب محتواها، لشكلت هذه الأخيرة مصادر تغنينا عن كتابات الأجانب في رحلاتهم عن أوضاع البلاد والمغرب الإسلامي عموما في هذه الفترة امتاز أغلب الرحالة بمكانة مرموقة اجتماعيا وبكونهم علماء مشهورين ساروا على منهج السلف في طلب العلم، وأعطتنا هذه الرحلات صورة عن آداب طلب العلم، كما عند ابن حمدوش الذي طلب إجازة أحد شيوخه بيوت شعرية ولو اكتملت هذه الرحلات ووصلت إلينا لشكلت تراثا ثقافيا غنيا عن البلاد العربية ككل وأحوال الثقافة فيها.

---

(1)- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج1، ص 185، 186.

(2)- الورثلاني: الرحلة الورثلانية الموسوعة، نبرهة الأنصار في فضل علم التاريخ والأخبار، مج 1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2008، ص(6- 8).

(3)- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء، ج2، ص (187، 188).

وبسبب البتور الذي لحق الرحلات الجزائري، واجهت المؤرخين مشكلة المصادر في حقبة التاريخ للعهد العثماني في البلاد، وبقية ذلك جوانب من تلك الفترة غامضة ومجهولة، ومن حسن الحظ أننا وجدنا مصدرا آخر يبث أخبار أو إشارات حول المدن والصحاري والقبائل والتجارة التي كانت سائدة في ذلك العهد، وهي الرحلات المغربية القادمة من المغرب الأقصى وكان أصحابها من أهل العلم والمعرفة والإطلاع على ماضي المغرب الأوسط وحاضره، وينتمون لطبقة اجتماعية ومكانة مرموقة وعالية لدى أهل المغرب الأوسط حكاما وعلماء وشعب. (1)

وتعتبر هذه الرحلات ذات أهمية بالغة بالنسبة للقطر أو إقليم المغرب الأوسط، لكون المغاربة ينطلقون ويبحرون في طريقهم إلى الحج على المدن الجزائرية ساحلية كانت أم داخلية أم صحراوية، وبذلك سجل هؤلاء المغاربة ما شاهدوه من مواقع وآثار وبقاع، وما كان لهم من اتصال بأهل العلم والأدب، وما علق بحقولهم حول الحياة العامة فيها والتعريف بكل مراحل الطريق والمدن التي نزلوا بها وتزودوا بما يحتاجونها منها، كما ذكروا اختلاف المذاهب وأراء الفقهاء وغيرها، وبالتالي فإن رحلتهم تعد تقريرا مفصلا لحركة الرحلة ذهابا و إيابا، والجدير بالذكر هنا أن الرحلات المغربية كانت كثيرة، وتم المحافظة عليها من الضياع أو النقصان. (2)

والرحلات المغربية كما أشرنا كثيرة وأخذنا نماذج رحلات على طول العهد العثماني.

أول رحلة نذكرها هي رحلة التمقروطي*، كانت في أواخر القرن 16م وهي عن طريق البحر، وسماها " النفحة المسكية في السفارة التركية" تحدث فيها عن الجزائر في ذهابه وإيابه، واصفا إياها والملاحظة أنها رحلة سياسية(3).

ثاني رحلة هي حلة العياشي والمسماة " ماء الموائد"، وهي حلة ضخمة خصصت فيها صفحات كثيرة للجزائر، خاصة قسمها الجنوبي باعتبار الرحلة برية، فوصف فيها مدنها وعلمائها، ورحلته تساعد الباحث في معرفة أوضاع الجنوب الجزائري في القرن 17م: سياسيا، اقتصاديا وثقافيا. (4)

---

(3) – مولاي بلحميسي: مجع سبق ذكره، ص (13، 14).

(2)– أبو عبد الله محمد الحضيكي: الحلة الحجازية، ضبط وتعليق: عبد العالي مدبر المغرب، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، ط 1، 2011، ص 6.

(3)– مولاي بلحميسي: مرجع سبق ذكره، ص (15، 16).

* التمغروطي (1560– 1595): هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي التمغروطي، نسبة إلى قريته، تعلم بزاوية المكان وجاب مدنها، وقلد مناصب سياسية في عهد أحمد المنصور السعدي.

(4)– نفسه، ص 24

ثم تأتي رحلة ابن زاكور*، في أواخر القرن 18م، رحلته تسمى" نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان"، وهي رحلته قصيرة قدم لنا فيها المؤلف صورة حية ومفصلة للحياة العلمية مدينة الجزائر، كما لم يصفها أحد غيره، فذك فيها علمائها ومناهج الدراسة بمؤسساتها التعليمية وأهل لكتب التي تدرس وكل ما تعلق بالتعليم وأحواله. (1)

وهذه النماذج عن الرحلات الحجازية سواء لعلماء الجزائر أو المغاربة، تسمح لنا بمعرفة مستوى النشاط الثقافي وأسلوب ونمط التأليف الذي كان يتبعه الرحالة في كتابة رحلاتهم وتقدم معلومات خصبة عن واقع الحياة العامة، خاصة الثقافية بما أن الرحالة كان هدفهم من الرحلة من بعد الحج هو أخذ العلوم على يد العلماء الكبار وطلب الإجازات، وحضور المجالس العلمية والمشاركة في الحياة الثقافي، وبسبب ما حل بالرحلات الجزائية فإننا فقدنا مصدرا مهما عن واقع الحياة العلمية بالبلاد في حواضرها خاصة والحياة العامة ككل بقطرها، وبالعموم لا أحد ينفي أهمية الرحلات الجغرافية كتراث علمي وأدبي وجغرافي مهم لاستكمل صورة عامة للتاريخ لأي فترة ما.

3_الصلات الفكرية بين حواضر المغرب الأوسط وحواضر العالم الإسلامي:

إن الموضوع الذي نحن يصدده قد جلب اهتمام الباحثين والمؤرخين حول طبيعة التبادل والحركة الفكرية بين علماء المغرب الإسلامي، خصوصا أن لهم ميزات مشتركة تجمعهم كالعقيدة الإسلامية والمذهب المالكي، إضافة إلى الترابط الجغرافي التاريخي لهذا القطر، فهم على نفس البنية لاجتماعية والثقافية واللغوية وحتى الدينية، فطبيعي جدا أن يكون هناك تواصل بين علماء القطر المغربي ككل.

ويمكن أن نلمس ملامح ومظاهر هذا التبادل أو الصلة في نقاط أو مظاهر كما قلنا وهي: الإجازات العلمية، الرحلات، المجالس العلمية ومناظرتها وتبادل الرسائل الإخوانية.

والإجازات العلمية: هي إذن من الشيخ لطالب أو عالم آخر يأذن له فيها برواية ما أخذ عنه، أو تكون إذنا لتولي منصب ما أو لتدريسه لغيره... الخ، وما يجمع بين أنواعها هي أنها إذن في أمر يتعلق بعلم، وقد يكون طب الإجازة هذا نثريا أو شعريا وهي أشبه بشهادات هذا الوقت(2). ولقد كثرة الإجازات بين علماء المغرب وعلماء الجزائر، والعلماء التونسيين، وذلك راجع أن العالم كان يبحث عن العلم في جل الأماكن، وكلما هاجر العلماء إلى إقليم إلا وبحثوا فيه عن خيرة علمائها وأشهرهم طلبا لعلمهم وإجازاتهم.

(1)– مولاي بلحميسي: مرجع سبق ذكره، ص 31 – وما يليها.

(2)–ليلى غويني: التواصل الثقافي، مجلة الدراسات التاريخية، ص 215.

والإجازة شهادة استماع، تكون مؤرخة ويحتفظ بها المستمع ليستطيع أن يعطي لطالب الإجازة عنده مثلها، وقد ينظمها صاحبها تنظيما حسب تواريخها والبلدان التي حل بها أو حسب أسماء المشايخ[1].

ولقد كانت هذه الإجازات على قدر كبير من الأهمية لدى لعلماء، فهي شهادة تعطى للطالب ويصبح بها أستاذ ملقنا لما أجيز بروايته، ومع الوقت تراجعت وضعفت مكانتها لما غاب أدب طلب الإجازات، فقد أصبحت تعطى في المرحلة الأخيرة من هذا العهد دون التحقق من كفاءة ودراية المجاز، ولم تعد تفيد القراءة أو المشافهة أو حتى الجزء المقروء من الكتاب، وأصبحت تعطى في كل المجالات العلمية، حتى ولم يحضر طالبها كل العلوم، وهذا التساهل نتج عنه ضعف مستوى التعليم، لأن المجازين أصبحوا يدرسون ويجيزون فيها لم يدرسوه على أحد[2].

ومن أمثلة إجازات الجزائيين للمغاربة والتونسيين، ما أجازه الشيخ احمد المقري نزيل فاس، حيث أجاز من المغاربة العالم محمد بن قاسم الشهير بابن القاضي أذن له فيها برواية كل مرويا ته وكتبه النثرية والشعرية، ونشير هنا أن طلب المجيز كان في أبيات نثرية، وجرت العادة لدى العلماء بالرد بمثلها.كما أجاز المقري ذو المكانة العالية لدى أهل تونس الشيخ تاج العارفين التونسي وأذن له برواية جل مؤلفاته نثرا وشعرا[3].

ولعل في رحلته ابن زاكور الفاسي أحد علماء المغرب في القرن 11م أمثلة عن إجازة علماء جزائريين للمغاربة، فقد ذكر ابن زاكور في رحلته إجازة المنجلاتي له في نص نثري بعد الإلحاح عليه، فأجازه برواية ما أخذ عن شيوخه بالمشرق والمغرب وما أخذه عن شيوخ الجزائيين أمثال سعيد بن براهيم الجزائري، وأخذ عن الشيخ عبد الواحد السلجماسي الأنصاري، بالإضافة إلى ذكر المجيز للكتب التي درسها وحضرها طالب الإجازة[4]. كما أجاز المؤلف مشايخ جزائريين آخرين أمثال: عبد الله محمد بن عبد المومن الحسني الجزائري، وعموما فقد ذكر في كتابه الرحلة جل العلماء الذين أخذ عنهم في الجزائر[5]، أما الإجازات والعلاقة بين التونسيين والجزائيين في العهد العثماني فهي قليلة، ويعود ذلك إلى كفاءة تونس العلمية خاصة أن جامع الزيتونة فيه، وتوجهات علماء تونس كانت نحو المشرق فهم لم يروا

(1)– محمد بن ناصر الدرعي: الرحلة الناصرية، تحقيق وتقديم: عبد الحفيظ ملوكي، الإمارات العربية المتحدة، دار الويدي للنشر والتوزيع، ط1، 2011، ص 24.

(2)– أبو قاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص–ص(39، 40).

(3)– ليلى غويني: التواصل الثقافي، ص–ص(216، 218).

(4)– ابن زاكور: مصدر سبق ذكره، ص–ص(45، 46، 47، 48).

(5)– نفسه، ص 55، وما بعدها، وعن شيوخ المؤلف أنظر، ص 20، وما بعدها.

في علماء الجزائر ما يزيد لهم، ومع ذلك فقد أجاز بعض علماء الجزائيين أشقائهم التوانسه، ومثال ذلك إجازة ابن العنابي لمحمد بيرم، وإجازة احمد بن عمار تلميذه إبراهيم السيالي التونسي.[1]

وإذا تصفحنا عدد العلماء المهاجرين إلى تونس والمغرب لأجل العلم، نجد أن اتجاهات الجزائريين نحو المغرب كانت أكثر بكثير من توجههم إلى تونس، وربما يعود ذلك إلى الأوضاع السياسية والتشجيع المغربي للعلم ككتب ما كان بين البلدين[2].

هذا بالنسبة للإجازات العلمية بين علما الجزائر وجيرانها، ونشير أيضا إلى وجود إجازات تلقاها علماء جزائريين من العلماء المسلمين سواء من المغرب أو المشرق، وهي كثيرة يستحيل حصرها، نذكر منها نماذج فقط، منها إجازة ابن القاضي صاحب جذور الاقتباس للمقري قبل حيله[3] و اجاز علماء المغرب لابن حمدوش وذكر ذلك في رحلته، وأهمها إجازة البناني للمؤلف[4]. ولا ننسى أن نشير إلى إجازات المشارق للعلماء الجزائريين وإجازة هؤلاء لهم، مثلما وقع للورثيلاني الذي أجازه عدد من علماء المشارق، ونفس الشيء حصل مع أبا راس الناصري، وقد ذكر منهم ذلك في رحلاتهم.

أما فيما يخص إجازات الجزائريين لبعضهم البعض فهي تعد نادرة مقارنة مع ما أجازوه وأجيزوا به من الحواضر الإسلامية الأخرى، فرغم أن العلماء الجزائريين كانوا يحضرون مجالس بعضهم البعض، إلا أنهم نادرا ما يمنحون الإجازات، فيبدوا أن الإجازات كانت لا تمنح إلا للمغترب وصاحب السفر الطويل في سبيل العلم، وغم ذلك ذكر لنا بعض العلماء وإجازاتهم من علماء بلادهم منها إجازة احمد بن قاسم البوني لابنه أحمد الزروق، إجازة سعيد قدورة مفتي المالكية بالعاصمة لأخيه أحمد قدورة. [5]

والمظهر الثاني الذي يدل على وجود الصلات الفكرية بين العلماء هي المناظرات والمجالس العلمية وتبادل الألغاز والرسائل الإخوانية.

وتعتبر المجالس والمناظرات العلمية مظهرا إيجابيا يدل على نشاط الحركة الثقافية، ومكان لتبادل الآراء والأفكار ووجهات النظر بين الفقهاء وتصحيحها، خاصة أنهم يتناولون جل مسائل الأمة في

(1)- أبو قاسم سعد الله: تاريخ الثقافي، ج2، ص(45، 46).

(2)- عمار هلال: العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنيين 29م، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1955، ص-ص(113، 144)، خاصة بقائمة العلماء الجزائيين بتونس وعددهم إجمالا"9 علماء، وفي الصفحات (181، 182، 183)، علماء الجزائر بالمغرب وعددهم إجمالاً: 22 عالما.

(3)- أبو قاسم سعد الله: تاريخ الثقافي، ج2، ص 49.

(4)- ابن حمدوش: مصدر سبق ذكره، ص 39.

(5)- أبو قاسم سعد الله: تاريخ الثقافي، ج2، ص ص(42، 43).

مناقشاتهم. وعن المجالس العلمية ومناظراتها، قد يكون أبا راس الناصري أفضل من سجل في هذا السياق، حيث كان ولوعا بها وسجل ذلك في رحلته فقال: " واجتمعت مع العلماء بجامعها الأعظم، فتذكرنا وتناظرنا وترافعنا وتقابضنا في جميع الفنون الدقيقة والمسائل الخفية..." وكان هذا الحدث في جامع الزيتونة الذي كان على قدر وهيبة في العلم وجميع فنونه ومسائله، وذكر ذلك الورثلاني أيضا في رحلته ونقل أوضاع المجالس العلمية بها. [1]

أما عن المغرب فقد أثار ابن حمدوش الموضوع وسجل تفاصيلها حول مجالس التدريس، حتى أنه تصدى للتدريس بها حيث قال: "... ويوم الأربعاء ابتدءانا تدريس روضة الأزهار في علم وقت الليل والنهار"، ونسخ شرحها البعقيلي"، وقد قدم دروسه هذه إلى الطالب عبد الله جنان. وأما في داخل البلاد فلم نعثر على ما يثبت اجتماع العلماء في مجالس علمية ومناقشة المسائل العامة.

المظهر الأخر الذي يدل على وجود صلات بين علماء الجزائريين وغيرهم الرسائل الإخوانية، والتي كانت تتبادل بدافع التهنئة أو التوديع أو المجاملة، ومع أن هذه المراسلات تعتبر شخصية إلا أنها تقدم صورة واضحة حول قضايا اجتماعية وسياسية[2] والرسائل الإخوانية بين الجزائريين وغيرهم من العلماء المغاربة والتونسيين كثيرة، فقد أشرنا أنها تستخدم في ميادين عدة سواء لطلب العلم والاستفسار أو حل الألغاز والطرافة بين العلماء، أو مراسلات للتهنئة أو ما يقابلها.

وعن أمثلة المراسلات نجد أن كلا من المقري وابن الفكون كانا من أكثر من اشتهر بالمبادلات في هذا الميدان، ورسائل المقري كثيرة لكثرة علاقاته سواء بالمغرب أو غيرها أو حتى مع علماء البلاد[3]. فمثلا نجد رسالة أبي بكر السوسي إلى المقري تحمل أسئلة فقهية كحكم تارك الصلاة وآدابها ومناسك الحج، وجاءت الرسالة بأسلوب شعري، كما بعث العالم المنقلاتي رسالة تقريض إلى المقري حول تأليفه أزهار الرياض، ونجد رسالة عبد العزيز بفاس يبلغونه فيها سلامهم[4].

كما كان للفكون رسائل أيضا منها ذكره في منشوره، حيث ذكر مراسلة الشيخ العارفين، ومراسلته هو والمقري ونقد هذا الأخير له بسبب إعراب آية رسالة إبراهيم الغرياني القيرواني للفكون.

وفي رحلة ابن حمدوش نجد نماذج عن تجادل الرسائل بينه وبين علماء بلده، وبين علماء المغرب نذكر منها، كتاب البوني له الذي أورد لغزا ورسالة تعزية للمؤلف بسبب وفاة ابنه جاءته من

(1)- ليلى غويني: التواصل الثقافي، ص 219.
(2)- ليلى غويني: التواصل الثقافي، مجلة، ص 224
(3)- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الثقافي، ج2، ص 195.
(4)- ليلى غويني: نفسه، ص-ص(222، 223).

الشيخ المفتي محمد بن حسين، وذكرها ابن حمدوش وأنثى عليها إذا قال: " وقد أحسن بعض الإخوان وأجاد في مراسلتي جزائي بها على الصبر، جزاه الله خيرا..."[1].

وبهذه النقاط نخلص إلى أن النشاط الفكري لإقليم المغرب الأوسط كان على شاكلة غيره بالبلاد المغربية وحتى وان اختلفوا في الكم ،فان العلماء الجزائريين كانوا على مستوى نظرائهم تفاعلوا معهم أثروا وتأثروا.ولو لا الأوضاع التي سادت البلاد التي تميز بالإجمال بالاضطراب السياسي وأخذا بسياسة الحكام واثأر الاحتلال الذي مرة بهما البلاد والذي تسبب في ضياع وخراب جل المؤلفات الجزائرية وبالتالي ندرتها وهو ما جعل هذا الجانب يدرس من وجهة نظر الأجانب على حسب ما رأوه وما عايشوه في المدة التي تواجد فيها بالبلاد،فكان حكمهم مبني على وضعية محددة زمنيا ومكانيا.وكما لاحظنا فان مظاهر الفكر الجزائري كانت من جهد شخصي وأغلبه مبتور أو ناقص.

(1)- ابن حميدوش: مصدر سبق ذكره، ص(130- 150).

سعت هذه الدراسة إلى محاولة إلقاء الضوء وإعطاء صورة عامة عن الحالة والنشاط العلمي والفكري لحواضر المغرب الأوسط في فتة تواجد الأتراك به، وقد استخلصنا من بحثنا هذا جملة من الاستنتاجات نحصرها كالآتي:

- عاش إقليم المغرب الأوسط جملة من المتغيرات السياسية والاجتماعية ابتداءً من القرن 15م، وما تلاه من بعده إذا عرف بقدوم الأتراك تنوعا في سياساته، واتساع مجالات حكمه وتحقيق لوحدة الترابية وصولا إلى سيادته كدولة.
- لقد سمحت لنا دراسة الجانب السياسي والتاريخي بمعرفة وقياس الأمن والاستقرار الذي عاشته البلاد ومعرفة مدى تأثيرهما على الحركة التعليمية وتنشيط وتفعيل الحياة الفكرية، إذا أن سياسة الحكام تجاه الثقافة بوجه عام أثرت عليها،إذ تركت شؤون التعليم لأهله، وأصحاب النظر فيه، فحين اعتنت هي بالجو العسكري والأمني.
- شهدت التركيبة الاجتماعية في العهد العثماني تنوعا عرقيا أضفى إلى تمازج اجتماعي وإثراء ثقافي للعادات والتقاليد، وتأثير طبقة وفئة الأتراك على المجتمع الجزائري بفعالية باعتبارها صاحبة السلطة في البلاد، وقد استطعنا من خلال إلقاء النظرة العامة عليها معرفة أدوار كل فئة اجتماعية ومجال تأثيرهما وفعاليتهما فأدركنا أن الأتراك بحكم بنيتهم الفكرية والعلمية، كانوا بعيدين على التأثير في المجال الثقافي خاصة ما تعلق بالمساهمة أو الإنتاج العلمي، وإنما اقتصرت مشاركته في تأسيس هياكل الثقافة المحركة للحياة التعليمية والثقافية.
- رغم ما قيل عن الأتراك وسياستهم تجاه العلم والعلماء، فإن من خلال دراستنا توضحت لنا أن هذه الفئة تموقعت بحسب إيديولوجيتها وإمكانياتها الشخصية والاجتماعية بما يناسب تكوينها العسكري والحربي، والذي تفقهت به أكثر من مشاركتها بالحياة الثقافية علما أنها فئة تفتقر إلى الآليات والوسائل المساعدة على الاندماج كاللغة، والجذور التاريخية، فحين لم يكن العامل الجغرافي سببا مؤثرا على فعاليتها بالمجتمع.
- تميز الواقع الثقافي بالبلاد الجزائرية في العهد العثماني بجملة من الخصائص كان أهمها هو تمحور مدلول الثقافة بحسب النشاط التعليمي والحركة الفكرية، الذي عاب عليه المؤرخون، جموده وخموله، فحين تبين لنا أن هذا الوضع الثقافي في هذا العهد كان موروثا عن العهود السابقة له، فحالة الانحطاط التي عاشها لم تكن وليدة تلك الفترة إنما استمرارية للواقع الذي كانت عليه قبل هذا العهد.

وفي تصفحنا للمؤسسات التعليمية وانتشارها الواسع عبر ربوع الوطن لمسنا وجود حركية تعليمية فعالة كانت على المستوى القطر المغربي الإسلامي، حتى وإن غاب عن البلاد وجود جامعة إسلامية كالتي كانت بتونس وفاس المغربية، فقد انتشر التعليم بمختلف أطواره، الابتدائي والتكميلي وبدرجة أضعف الثانوي والعالي، رغم ما وجه إليها من انتقادات حول المستوى التعليم ونوعيته، إلا أن بعض مؤسساته استطاعت أن تصل إلى درجة الريادة والمنافسة، وطبعت نفس أساليب الجامعات في

المقررات ومناهج التدريس التي كان يعتمد على نظام الحلقات فيها، وتلقين أمهات الكتب للطالب بعد تسلحه بملكة اللغة والحفظ والذكاء.

- وفي ظل غياب سياسة محكمة من طرف الحكام العثمانيين تجاه الحركة التعليمية، حيث أنهم لم يهتموا بالعلم والعلماء وتشجيع حركة التأليف وتفعيل الحياة الفكرية، ولذلك قامت الحياة الثقافية في البلاد على سواعد أفراد المجتمع الذين كان في اعتقادهم أن التعليم أساس الدين، وقام هذا الأخير على المشاريع الخيرية النابعة من فعل الخير ومن المؤسسات الوقفية التي ساهم فيها الحكام والأهالي، لذا يبقى دعم الأتراك للثقافة ماديا انصب حول بناء جوامع والمدارس وإكثار الأوقاف لها، وكان نتيجة هذا الإهمال وغياب إستراتيجية تعليمية محكمة هي بساطة التعليم في مناهجه وأسلوبه، واقتصاره على العلوم الدينية، وحتى أن هذه الأخيرة عانت من التقليد، إذ أن التأليف فيها انصب على اجترار ما سبق إنتاجه، واكتفى علماء الفترة بوضع الشروح على الشروح والحواشي وعلى المتون وهذا ما أدى إلى تبسيط الثقافة الجزائرية.وهي نفسها حال الثقافة الإسلامية

- ومع أن العلوم الدينية كانت مسيطرة وظاهرة التقليد قضت على التجديد والإبداع إلا أن ذلك لم يمنح ظهور مؤلفات جزائرية بلغت سعة راقية لدى العلماء المسلمين، حيث تصدرت بعض المؤلفات الطليقة وأصبحت مراجع يعتمد عليها العلماء في تفصيل حركة التعليم في مجالسهم، وهذا دليل على أن مستوى التأليف في الجزائر لم يختلف عن مستوى الثقافة الإسلامية آن ذلك.

- وما يمكن أن يستدل به أن واقع الثقافة والحياة الفكرية في الجزائر لم يختلف عن الركب الحضاري الإسلامي هو ما لمسناه في مظاهر التواصل الفكري للعلماء، سواء عن طريق الرحلات أو الإجازات أو الرسائل والمجالس العلمية.

- لقد سمحت لنا كتب الرحلات من معرفة كوكبة العلماء الجزائريين والمغاربة ككل وأوضحت طريقة التواصل بينهم، كما سمحت لنا بمعرفة المناهج العلمية المتبعة سواء من ناحية التدريس ومعرفة مستوى الثقافة ككل بالقطر المغربي الإسلامي.

- أبرزت هذه الرحلات الحواضر العلمية الموجودة داخل الإقليم وخارجه وأسباب بروز حواضر على اخرى ونقلت لنا الأوضاع العامة في حواضر البلاد، خاصة ما تعلق بالناحية الثقافية.

- وجملة القول أن إقليم المغرب الأوسط بحواضره وعلمائه ومؤسساته التعليمية ومناهجها وأساليبها ومقرراتها التعليمية لم تختلف عن واقع الثقافة الإسلامية ككل بكل أقطار العالم العربي، حيث درس الجزائريون من نفس الكتب، معتمدين على نفس المناهج الإسلامية في التدريس، متمسكين بالطابع الإسلامي التقليدي في تحصيل العلم سواء في الرحلات والإجازات، ورغم الظروف التي عاشتها الجزائر وسياسة حكامها وصفاتهم الحربية والعسكرية إلا أن ذلك لم يمنعها أن تقف على مستوى الحواضر الإسلامية انذلك، ودليل ذلك أن العلماء الجزائريون لما يحلون بقطر يثيرون انتباه من حولهم، ويكسبون مكانة لدى علمائها وحكامها.

- وبالعموم إذا ما أردنا أن نعرف الواقع الحقيقي للثقافة الجزائرية في العهد العثماني وجب علينا توسيع دائرة البحث نحو مقارنتها مع إحدى الحواضر العلمية سواء المغربية أو الأندلسية، لنكتشف حقيقة الركود العلمي الذي اهتمت به ومقارنة نشاط الحواضر فيما بينهما.
- و يعاب على الثقافة بعلمائها ومؤسساتها عدم إضطلاعها وانفتاحها على العالم الغربي وعدم خروجها من النظرية الدينية الضيقة في مجال العلوم إذ أن ما لا يخدم الشريعة ويفضل تركه وهذه الحالة كانت على نطاق العالم الإسلامي أنذلك، وهي ما جعلها لا تتبادل أواصل الفكر مع أوربا التي تدخل في مجال آخر في العلوم التي وصل إلى حد التطبيق والتجربة ولو أنها انفتح العالم الإسلامي نحوها لا ربما سار على ركاب التطور والتقدم العالمي في مجال العلوم وهذا كعنصر يحتاج إلى الدارسة لنقيم بالفعل الثقافة الجزائرية.

1. المصادر:

أ. الكتب:

1) الحضيكي محمد بن أحمد، الرحلة الحجازية، ضبط وتعليق عبد العالي مدبر، المغرب، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، ط 1، 2011م.

2) الحفناوي أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، الجزائر، مطبعة بييرفونتانة الشرقية، 1906م.

3) ابن حمدوش عبد الرزاق الجزائري، الرحلة :لسان القال في النبأ عن النسب والحال، تحقيق وتعليق القاسم سعد الله'الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1983م.

4) ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، تحقيق درويش جويدي، بيروت، المكتبة العصرية للنشر والتوزيع، 2001م.

5) خوجة عثمان بن حمدان، المرآة، تعريب محمد العربي الزبيري، الجزائر، منشوراتAnep، 2005م.

6) الدرعي محمد بن ناصر، الرحلة الناصرية، تحقيق وتقديم عبد الحافظ ملوكي، الإمارات العربية المتحدة، دار سويدي للنشر، ط1، 2011م.

7) ابن زاكور محمد بن قاسم الفاسي، نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء وأكابر الأعيان، الجزائر، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، 2011م.

8) سبنسر وليام، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب عبد القادر زبايدية، الجزائر، دار القصبة للنشر، 2007م.

9) شارل وليام، مذكرات وليام شارل قنصل أمريكا بالجزائر، تعريب وتقديم وتعليق إسماعيل العربي، الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982م.

10) شاوش حسين بن رجب، تقييدات ابن المفتي، جمعها واعتنى بها فارس كعوان، الجزائر،

11) العياشي عبد الله بن محمد، الرحلة العياشية، تحقيقها سعيد الفاظلي وسليمان القرمي، الإمارات العربية المتحدة، دار سويد للنشر والتوزيع، ط1، 2006م.

12) الفكون عبد الكريم، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، ط1، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1987م.

13) كاربخال مارمول، إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، ج2، الرباط، دار نشر المعرفة، 1989م.

14) ابن مريم محمد بن محمد المليتي المديوني، البستان في ذكر العلماء و الصلحاء بتلمسان، اعتنى به وراجعه محمد ابن أبى شنب، الجزائر، المطبعة الثعالبية، 1908م.

15)المزاري بن عودة أغا، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا الى أواخر القرن 19 م، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، ج1، دار الغرب الإسلامي، د.س .

16) ابن ميمون محمد الجزائري، التحفة المرضية في أخبار الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق وتقديم محمد عبد الكريم، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، 1972م.

17)النباهي أبو الحسن، كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق لجنة إحياء التراث، بيروت، دار الأفق الجديد، ط5، 1984م.

18)هابنسترايت ج او، الرحلة إلى الجزائر وتونس وطرابلس، تر. وتع. ناصر الدين سعيدوني، تونس، دار الغرب الإسلامي، دس .

19)الورثيلاني الحسين بن محمد، الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، مج1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2008م.

20)وولف جون بول، الجزائر وأوروبا، تر.وتع: أبو القاسم سعد الله، الجزائر، المؤسسة الوطنية، دس.

ب. **المصادر الأجنبية**

1) DEVOULX :les édifices religieuse de l'ancien Alger. EN Revue Africain. V06.1862.

2) H-D-DE GRAMMONT ،histoire d'Alger sur la domination turque (1515 1830) .PARIS: ERNEST LEROUX

2. المراجع:

أ. الكتب:

1) بلحميسي مولاي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979م.

2) بوحوش عمار، التاريخ السياسي للجزائر من البداية لغاية الاستقلال 1962م، بيروت، دار الغرب الإسلامي وط1، 1997م.

3) بوعبدلي المهدي، الأعمال الكاملة للشيخ المهدي بوعبدلي'جمع وإعداد عبد الرحمن دويب، الجزائر، عالم المعرفة، ط1، 2013م.

4) بوعبدلي المهدي، تاريخ المدن، جمع وإعداد عبد الرحمن دويب، الجزائر، عالم المعرفة، ط 1، 2013م.

5) بوملة نبيل، صفحات من تاريخ بجاية في العهد العثماني، الجزائر، دار هومة، 2013م.

6) التر سامح عزيز، الأتراك العثمانيون شمال افريقيا، محمود علي عامر، بيروت، دار النهضة العربية، ط1، 1989م.
7) الجيلالي عبد الرحمن محمد، تاريخ الجزائر العام، ج2، الجزائر، المطبعة العربية، 1900م.
8) حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب'1984م.
9) سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط3، 1998م.
10)سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ج2، بيروت، دار الفكر الإسلامي، 1998م.
11)سعيدوني نصر الدين والمهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ، ج4، العهد العثماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1984م.
12)سعيدوني نصر الدين، الأعمال الكاملة (ولايات المغرب العثمانية)ط2، الجزائر، دار البصائر للنشر والتوزيع، 2013م.
13)سعيدوني نصر الدين، النظام المالي بالجزائر في الفترة العثمانية، الجزائر، الشركة الوطنية الكتاب، 1979م.
14)سعيدوني نصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني'الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م.
15)سعيدوني نصر الدين، ورقات جزائرية:أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000م.
16)السليماني أحمد، تاريخ مدينة الجزائر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية'د.س.
17)شغيب محمد المهدي بن علي، تاريخ مدينة قسنطينة'قسنطينة، مطبعة البعث، 1983م.
18)شويتام أرزقي، نهاية العهد العثماني بالجزائر وعوامل انهياره، الجزائر، دار الكتاب، دس
19)الضيقة حسين، الدولة العثمانية الثقافة المجتمع والسلطة، لبنان، دار المنتخب العربي، 1987م.
20)عباد صالح، الجزائر في ظل الحكم التركي، الجزائر، دار صوشة، 2007م.
21)عبد الله أحمد بن سعود، موسوعة الرحلات العربية والمغربية المخطوطة والمطبوعة، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، 2008م.
22)عمورة عمار، الجزائر بوابة التاريخ، ج2، الجزائر، دار المعرفة، دس .
23)عواطف محمد يوسف نوات، الرحلات المغربية والأندلسية، الرياض، دن، 1996م.
24)فيلالي مختار الطاهر، نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، دم.

25)قنان جمال، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث، الجزائر، دار الرائد للكتاب، 2010م.
26)مانتران روبير، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، ط1، القاهرة، دن، 1993م.
27)المدني أحمد توفيق، محمد عثمان باشا داي الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م.
28)مريوش أحمد وآخرون، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، الجزائر، منشورات المركز الوطني الدراسات والبحث، 2007م.
29)الميلي مبارك بن محمد الهلالي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، الجزائر، مكتبة النهضة الجزائرية، دس .
30)نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر، لبنان مؤسسة نويهض للثقافة والتأليف والترجمة والنشر، ط2، 1980م.

ب.الدوريات

- **مجلة الأصالة:**

✓ بوعبدلي المهدي، "تراجم بعض مشاهير وعلماء الزواوة القبائل الصغرى والكبرى"منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، طبع المؤسسة الوطنية للفنون، الجزائر، مج4، عدد13، 2012م.
✓ بوعبدلي المهدي، "مراكز الثقافة ومخازن الكتب بالجزائر عبر التاريخ"، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، طبع المؤسسة الوطنية للفنون، الجزائر، مج04، عدد11، 2012م.
✓ شارل وليام"، نبذة تاريخية عن دولة الجزائر" منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، طبع المؤسسة الوطنية للفنون، الجزائر، مج05، عدد14، 2011م.

- **مجلة الثقافة:**

✓ سي يوسف محمد"، نظام التعليم في بلاد الزواوة بايالة الجزائر خلال العهد العثماني، "عدد20، جويلية، 2009م.

- **مجلة الدراسات التاريخية:**

✓ أمير يوسف:"إسهامات الداي في وقف المساجد بمدينة الجزائر"(1671_1830)، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، عدد14 ’2012 .
✓ غويني ليلى"التواصل الثقافي بين الرحالة الجزائريين والعلماء المغاربة في العصر الحديث"’قسم التاريخ، جامعة الجزائر، عدد14، 2012م.

- **مجلة العصور الجديدة:**

✓ بونابى الطاهر": ملامح النشاط العلمي والروحي بقسنطينة أواخر العهد العثماني" مختبر البحث العلمي التاريخي، جامعة وهران، عدد 18، أكتوبر، 2015م.

- ✓ عبيد مصطفى، القضاء بالجزائر خلال العهد العثماني، مختبر البحث التاريخ الجزائر، جامعة وهران، عدد11، 12، فيفري، 2014م.

➢ **مجلة سيرتا:**

- ✓ العيد مسعود"المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني"، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، الجزائر، عدد10، أفريل، 1980م.

ت.الرسائل الجامعية

1) بودريعة ياسين:أوقاف الأضرحة والزوايا بمدينة الجزائر وضواحيها خلال العهد العثماني"، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة يوسف بن خدة، الجزائر، 2007 .
2) حماش خليفة، "الأسرة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني"، رسالة مقدمة لنيل دكتراه في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2006 .
3) حنفوق إسماعيل، دور الطرق الصوفية قي منطقة الأوراس(1844-1931م)، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2011م.
4) سعادنة جمال، الشعر الجزائري في العهد العثماني موضوعه وخصائصه الفنية، قسم اللغة العربية وأدابها، جامعة الحج لخضر، باتنة، 2011 .
5) شويتام أرزقي، "المجتمع الجزائري وفعاليته خلال العهد العثماني"(1517_1830)، رسالة لنيل درجة الدكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2006 .
6) ليلى غويني، التفاعل الثقافي بين دول المغرب في العهد العثماني من خلال الرحلات الحجازية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير تخصص تاريخ حديث، قسم التاريخ، جامعة الجزائر'2011م.
7) معاشى جميلة: الانكشارية والمجتمع في بايلك قسنطينة نهاية العهد العثماني، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم، قسم التاريخ، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2008م.

- أ -
انجلترا ص 35.
الأندلس ص 6-34-61
- ب -
بجاية ص 7-8-11-39-50-51-53-59-62-79-82
بسكرة 24 -43-44-59-79
البلقان ص 17
- ت -
تقرت ص 43
تلمسان ص 6-7-8-34-35-43-47-49-50-51-52-59-76-79
تنس : ص 8-17
تونس : ص 6-11-17-79-82-85
- ج -
جبل كوكو : ص 5-8-9
الجزائر : ص 5-6-8-10-11-12-24-27-36-66-71-76-77-83-84-85
الجزائر العاصمة : 5-7-9-10-15-32-33-34-35-38-41-43-44-47-48-49-50-51-52-53-79
- ع -
عنابة : ص 59-
عين ماضي : ص 63
- م -
متيجة : ص 5
مجانة : ص 33
مدية : ص 14
المرسى الكبير : ص 7-9-
مستغانم :ص 9-43
مصر :ص 82
معسكر : ص 50
المغرب الأقصى : ص 6-35-43-80
مكة : ص 64
- و -
واد سوف : ص 43-44-
ورقلة : ص 43
وهران : ص 5-7-8-9-15-33-43-50-53-76-77
جيجل :ص 17-24
- ح -
حجاز : ص 79-81-88
- ش -
شرشال : ص 8
الشلف :ص 76
- ص -
الصحراء الجزائرية :ص 30-31-43-44-48-63
- ط -
طرابلس الغرب :ص 7-11-17
طولقة :ص 63
- ف -
فاس :ص 43-85
فرنسا : ص 35
- ق -
القاهرة : ص 79
القبائل الكبرى : ص 5
القبائل الصغرى : ص 5
قسنطينة : ص 14-33-34-35-39-40-

–أ–

أحمد التليلي : ص 44

أحمد بن الخطيب (ابن قنفد): ص 40

أحمد زروق : ص 86

أحمد بن سحنون الراشدي : ص 57-76

أحمد بن عمار : ص 58-76-80-81-86

أحمد بن قاسم البوني : ص 57-76-80-86

أحمد قدورة: ص 86

أحمد المقري :ص 56-58-75-85-86-87

أحمد المليانى : ص 82

أحمد النقاوسي :ص 76

أحمد بن الهطال التلمساني :ص 77

ابراهيم السالي التونسي : ص 86

اسماعيل بن عودة المزاري : ص 77

أحمد بن يحي الونشريسي : ص 52-59-60

- ب –

بروزلي : ص 44

- ت–

التمغروتي : ص 83

- ح –

الحافظ الرماصي :ص 43-50

الحضيكي : ص 43

أبو الحسن بن الفكون : ص 5-40

أبو الحسن النباهي : ص 62

أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي :ص 62

الحفناوي : ص 69

حمدان خوجة : ص 66-71-76

الحوضي الجزائري : ص 76

- خ–

الخروبي محمد علي : ص 52

خير الدين : ص 7-8-9-10-11

- ر–

أبو راس الناصري : ص 43- 49-50-52-77-81-86-87

- ز–

زكرياء بن موسى المغيلي : ص 52-79

الزياني : ص 52

ابن زكور :ص 41-51-54-84-85

–س–

ابن سعد : ص 76

سعيد بن ابراهيم الجزائري :ص 85

سعيد قدورة : ص 50-59-86

ابن السكات :ص 42

سليم التومي : ص 8

سعيد المنداسي : ص 79

- ش–

شريف الزهار : ص 77

شارل وليام: ص 39-63

- ع –

عروج : ص 8

عبد الرحمان الأخضري : ص 43-57-59-75

عبد الرحمان الثعالبي : ص 42-76

عبد الرحمان الجامعي :ص 41-42-52

عبد القادر بن بسط البرذعي : ص52

ابو العباس حميدة بن باديس: ص 69

عبد القادر الجيلالي : ص 62

عبد العزيز الثميني : ص 60-76

عبد اللطيف مسبح : ص 59-69

عبد الرحمان المجاجي : ص 79

عبد الواحد سجلماسي : 85

عبد الواحد الونشريسي 59

عيسى الثعالبي : ص 75

- ف –

ابن الفكون 40-56 -57-59-69-76-85

- ق –

ابن القاضي 8-9

ابو القاسم سعد الله 41-43-44-46-53-55-56-57-58-80-81

- م –

المازوني 76

محمد بيرم 86

محمد التواتي 6

محمد بن حسين 88

محمد ابن راشد الزواوي 56

محمد بن رقية بن الجريري التلمساني 77

مراء الفرواسني 76

ابن مدين شعيب 62.

مصطفى بن رمضان العنابي 41.

ابن مريم 76.

محمد بن مصطفى بن زرفة**52**.

محمد بن علي سنوني 43-50-76.

ابن مرزوق 44.

محمد عثمان باشا 17-52.

محمد بن عبد الله الجيلالي 51.

محمد بن عبد الرحمان الأزهري62.

محمد بن عبد الرحمان بن الحاج البدوي التلمساني 59.

ابن المفتي 69.

محمد بن القاسم المشهور بابن القاضي 85.

المنقلاتي 85-87.

موسى الفكرين 59-87.

محمد الكبير 17.

محمد محمود العنابي 60-86.

محمد يوسف الزياني 77.

ابن ميمون 41-67.

- ي–

يحي الشاوي 56-76.

الإهداء
الشكر
المقدمة..... أ-ج

الفصل الأول: تمهيد حول الأوضاع العامة للمغرب الأوسط خلال الفترة 10-14 هـ/ 16-19 م

1.الأوضاع السياسية والتاريخية..... 5-18
2.الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية..... 18-36
3.مميزات وخصائص النشاط العلمي والفكري لحواضر المغرب الأوسط..... 36-44

الفصل الثاني: النشاط العلمي لحواضر المغرب الأوسط

1- التعليم مناهجه ومؤسساته..... 46-55
2- الحياة الأدبية والفقهية 55-60
3- الحياة الروحية والدينية 60-65
4- القضاء والأوقاف..... 65-73

الفصل الثالث: النشاط الفكري لحواضر المغرب الأوسط

1. الحركة التأليفية 75-77
2. الرحلات العلمية بين الحواضر..... 77-84
3. الصلات الفكرية بين حواضر المغرب الأوسط وحواضر المغرب الإسلامي..... 84-88

الخـــــــــــــــاتمة 89-91

.....

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة..... 93-97
فهرس الأعلام والشخصيات 99
فهرس الأماكن والمدن 100
فهرس المحتويات